موسوعة
لبنان



تاريخ، سياسة وحضارة
لبنان
العصور التاريخية الأولى



لبنان

تاريخ سياسة وحضارة

بين الأمس واليوم

الجزء الأول

لبنان

العصور التاريخية الأولى

إيلين زغيب عيسى

مقدمة

نتيجة جهود مضنية قام بها عدد من علماء وأخصّائيي التاريخ استلهموا المراجع التاريخيّة الموثوقة التي وضعها المؤرخون، تمكّنت أخيراً **EDITO CREPS** من إعداد الموسوعة الضخمة الفريدة من نوعها «**لبنان ـ تاريخ سياسة وحضارة**» بأجزائها الخمسة عشر. وقد توخّت **EDITO CREPS** في عملها جمع أكبر قدر من المعلومات التاريخيّة والحضاريّة القديمة والحديثة. وساعدها في ذلك عدد كبير من الأخصائيّين في علم التاريخ والمحرّرين والمصحّحين والمترجمين والمصممين الفنيين، من خيرة المتخصّصين في هذا المجال الواسع.

تحدّثنا هذه الموسوعة الضخمة عن لبنان منذ فجر العصور حتى يومنا الحاضر، ابتداءً من عصر ما قبل التاريخ، ومروراً بالعصور التاريخيّة المتعاقبة التي شملت بشيء من الإسهاب الحضارة الفينيقيّة وإنجازاتها وفتوحاتها. وذكرنا بالتفصيل أنظمة الحكم التي خضع لها لبنان، كحكم الإغريق والرومان، ثم الفتح العربي والحكم العثماني.

أفردنا الأجزاء الأخيرة من الموسوعة الجامعة إلى تاريخ الإنتداب الفرنسي واستقلال لبنان عن الانتداب، إلى الحرب التي اندلعت عام ١٩٧٥، وأسبابها ونتائجها، والاجتياح الإسرائيلي، وميثاق الطائف، ونشوء الجمهوريّة الثانية. كلّ ذلك أرفقناه بالوثائق المهمة وأبرز البيانات الوزاريّة، والمواقف السياسيّة التي صدرت عن جهات لبنانية مختلفة، وأبرز المعاهدات التي أبرمها لبنان منذ الحرب العالمية الثانية وحتى اليوم.

خصّصنا الجزء الثالث عشر للتحدّث عن الآثار العظيمة الموجودة في مختلف المناطق؛ والجزء الرابع عشر للسياحة والحركة السكانية. وجعلنا الجزء الخامس

عشر جزءاً مجانياً يُقدّم مع الموسوعة الأساسيّة، وهو دليل مرجعي للقرى والمدن اللبنانية موضوع بحسب التسلسل الأبجدي، بالإضافة إلى أبرز العائلات اللبنانيّة وتوزّعها على مختلف المناطق. ويأتي هذا الجزء على تعداد الرجالات الأفذاذ الذين نشأوا في مختلف المناطق اللبنانيّة. علماً بأننا سنقوم من وقت لآخر بتحديث هذه الموسوعة، على أن تقدّم المعلومات الجديدة في ملاحق بأسعار تشجيعيّة إلى الذين اقتنوا الموسوعة الأساسيّة.

إن **EDITO CREPS INTERNATIONAL** تفخر بأن تقدّم نتيجة جهودها إلى من يهمه الاطّلاع على تاريخ هذا البلد العريق، من لبنانيّين وعرب، آملة في أن تحتلّ موسوعتها الجامعة التي تنفرد عن سواها، إضافة إلى شموليّة معلوماتها، بصورها الملوّنة الغنيّة، مكاناً مرموقاً في المكتبة العربيّة كمرجع ثمين وفريد لتاريخ لبنان.

الناشر
EDITO CREPS
INTERNATIONAL

ملحق الصور



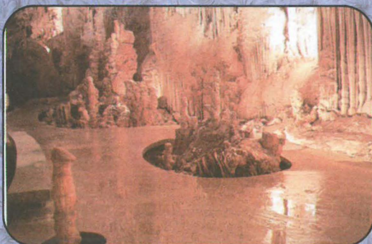
منظر عام للبنان من الجو

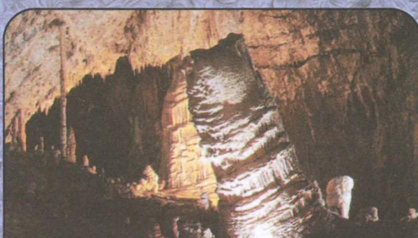


أرز لبنان المكلل بالثلوج



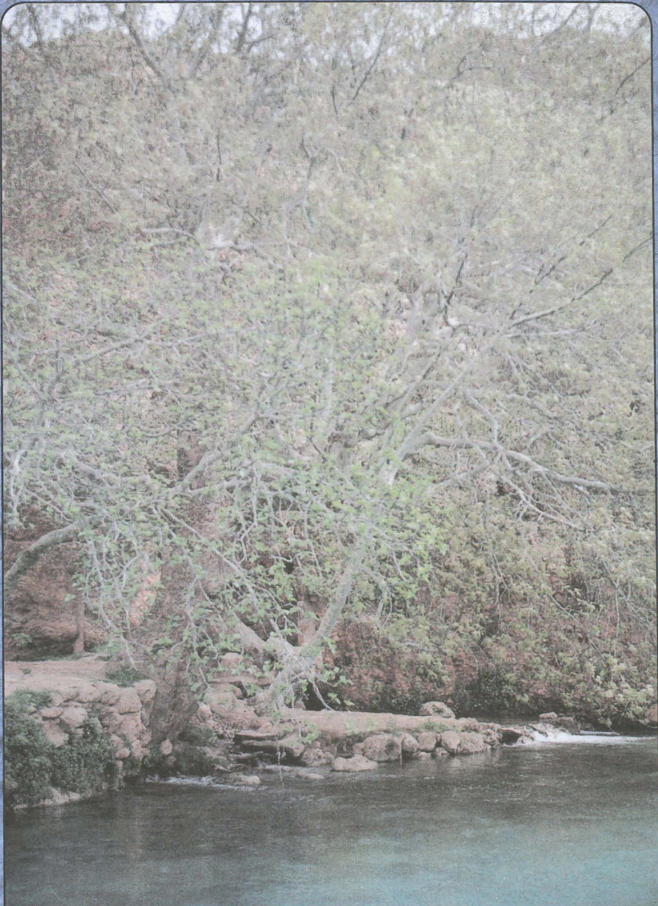
لقطات
من مغارة جعيتا







مغارة قاديشا



نهر العاصي



سدّ القرعون



الإيقونات المسيحية
المنقوشة على الصخور



بقايا الأجران التي شهدت
أعجوبة السيد المسيح



مغارة قانا



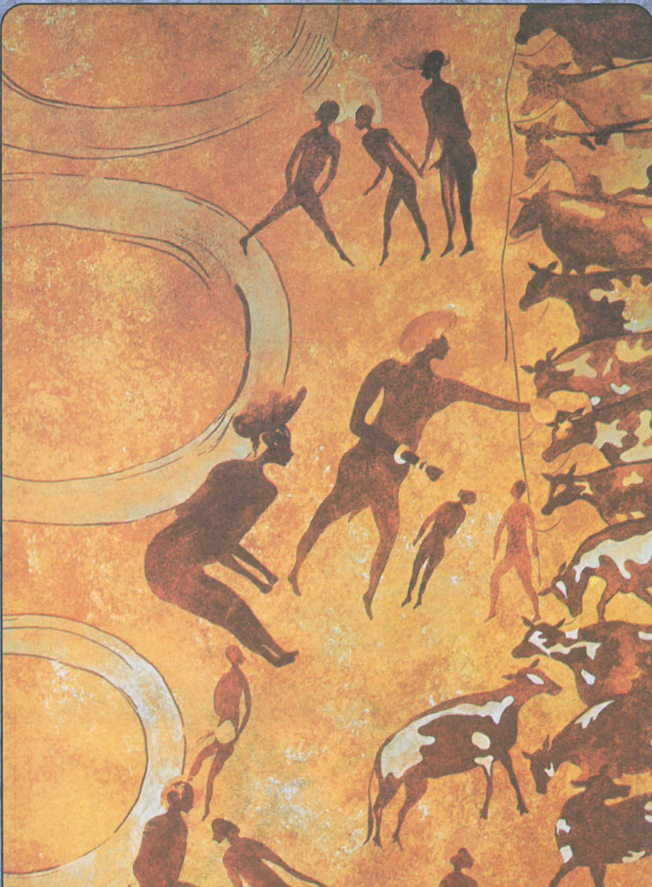
صخرة الروشة



جبال لبنان المكللة بالثلوج



رسم يظهر جانباً من حياة الإنسان القديم
(عن مجلة باري ماتش)



الصور التالية (ص ٢٠ - ٢١ - ٢٢) تمثل رسوماً جدرانية للإنسان القديم







الفصل الأول

التسميات

لبـــنان

اسم لبنان هو لفظساميّ مشتقّ من كلمة «لبان»، وهي تعني اللون الأبيض، نسبة إلى بياض الثلج الذي يغطي قمم لبنان طوال ستة أشهر. وهناك بعض القمم العالية يبقى عليها الثلج على مدار السنة.

واختلف المؤرّخون حول أصل اسم لبنان. ففي حين قال بعضهم إن هذا الاسم عائد إلى بياض قمم الجبال بسبب الثلوج، عزا آخرون التسمية إلى الصخور الكلسية البيضاء. ولكن هذا الأمر غير مقنع كثيراً، نظراً إلى أن الصخور غير ظاهرة للعيان، بل هي في الغالب مغطاة بالنباتات والأشجار ولا تعطي انطباعاً عن بعد بسيطرة اللون الأبيض كما هو الأمر بالنسبة إلى الثلج.

وذهب آخرون إلى نسب اسم لبنان إلى شجر اللّبن، وهو نوع من الأشجار كان ينمو في لبنان، ويعطي في الربيع أزهاراً بيضاء، وينتج الجذع صمغاً ذكي الرائحة، كان القدماء يصنعون منه البخور.

وورد استعمال اسم لبنان قبل تسمية فينيقيا بكثير. ويدلّ إلى ذلك ورود اسم لبنان مراراً في كتاب التوراة أو العهد القديم، وذكرُ الثلوج المتراكمة على قممه. فقد جاء في سفر ارميا: «هل يخلو صخر الصحراء من ثلج لبنان أم تنضب المياه المتفجرة الباردة الجارية».

فينيقيا

أما تسمية «فينيقيا» فهي لقب أو وصف أطلقه الإغريق على سكان الساحل في هذه المنطقة الممتدّة من فلسطين مروراً بلبنان إلى سوريا، وكلمة «فينيقي» في اللغة الإغريقية تعني الأحمر. وقد أطلق الإغريق هذه الصفة على السكان الآتين

عبر البحر من لبنان، نظراً إلى لون بشرتهم الأسمر أو الأحمر، وأيضاً تيمناً باللون الأرجواني الذي برعوا في استعماله.

وكانت لدى الإغريق أسطورة طائر الفينيق ذي الريش الأحمر، وهو إله يتجسد في شكل طائر يحرق نفسه ثم يُبعث حياً من رماده.

وقال آخرون إن اسم فينيقيا مشتقّ من كلمة «فينقس»، وهي تعني شجر النخيل باللغة اليونانية، وهذا احتمال وارد لأن أراضي فينيقيا كانت غنية بشجر النخيل في العصور السالفة.

هذا الشجر الذي كان ينمو نمواً جيداً في الساحل اللبناني، خصوصاً في نواحي طرابلس وعكار وبيروت وصور.

ويعتقد أيضاً أن شجرة النخيل كانت رمزاً لفينيقيا في العصور المتأخرة. وكانت المستعمرات الفينيقيّة كقرطاجة وأوتيكة تصوّر النخيل على مسكوكاتها.

سوريا ـ بلاد آرام

كما في تفسير اسمي لبنان وكنعان، اختلفت التفسيرات لاسم سوريا الذي أُطلق على المنطقة، كما اختلفت التفسيرات لتاريخ إطلاق هذا الاسم.

سبق اسمُ آرام اسم سوريا للدلالة إلى منطقة واسعة تمتدّ من محيط دمشق إلى البقاع. ووردت تسمية آرام في الكتاب المقدس، نسبة إلى آرام بن سام بن نوح. وأطلق التوراة اسم آرام على آرام النهرين، للدلالة على بلاد ما بين النهرين، وآرام دمشق للدلالة على دمشق، وآرام صوبا، التي يعتقد أنها سوريا المجوفة، أي البقاع اللبناني، وآرام معكة، التي يُظن أنها تقع في حاصبيا ومرجعيون، وآرام رحوب التي تقع الآن في الجولان السورية.

وعُرف اسم سوريا على نطاق واسع بسبب تسمية أطلقها اليونان، نسبة إلى صور التي عرف اليونانيون سكانها منذ القدم، فأطلقوا اسم صُر، أو سيريا، على المنطقة التي كانت خاضعة لسيطرة مدينة صور.

ويعتقد آخرون أن اليونانيين أطلقوا على هذه البلاد اسم سوريا نسبة إلى أسور أو أسيريا بلاد الأشوريين، الذين سيطروا لفترة طويلة من الزمن على هذه المنطقة. وأطلق اليونان أيضاً اسم سوريا على قسم من بلاد ما بين النهرين، حيث موطن الأشوريين وأيضاً على أرمينيا وبعض بلاد الفرس، للدلالة على المنطقة التي كانت تحت سيطرة المملكة الأشورية.

وخالف علماء آثار ومؤرخون هذه النظريات. واعتبر بعضهم، وعلى رأسهم مسبرو، أن تسمية سوريا كانت معتمدة منذ أيام المملكة المصرية، وتحديداً منذ عهد الفرعون المصري الذي فتح المنطقة كلَّها، وهي تُنسب إلى اللفظة المصرية كسّارو، التي خُففت إلى سوريا.

ونسب بعضهم اسم سوريا إلى أسور أو أسوريم بن ددان بن يقشان بن إبراهيم الخليل، على اعتبار أن الفينيقيين هاجروا من الشواطىء العربية. ويرد في الآثار المصرية ذكر لشعب اسمه أسور سكن سوريا الشمالية وحارب الفرعون رعمسيس الثاني في القرن الرابع عشر قبل الميلاد.

ويقول المؤرخ الأب دي كارا في كتابه «الملوك الرعاة» أن نقشاً وُجد في مصر عليه كتابات بثلاث لغات لاسم سوريا: باللغة الهيروغليفية «روتانو» وباليونانية «سوريا» وباللغة المصرية «أسار أو أسور».

ويرى المطران يوسف الدبس في كتابه «من تاريخ سوريا الدنيوي والديني» أن تسمية هذه البلاد سوريا هي أقدم بكثير من أيام علماء اليونان المعروفين، إذ إن اسم أشور أو أسور كُتب على جدار هيكل أدفو في مصر، قبل استيلاء الأشوريين على المنطقة.

كنعان

اسم كنعان يعود إلى كنعان بن حام بن نوح، الذي يقال إنه استوطن سوريا القديمة، وتشمل منطقة كنعان الساحل الممتد من فلسطين إلى سوريا امتداداً إلى الجبال الغربية الموازية للساحل.

وكنعان هذا أصابته لعنة أبيه بسبب عمل سوء أقدم عليه. ويقول بعض المؤرخين أن كنعان هو اسم مشتق من «كنع» وهو لفظ عبراني يعني ركع، ومعناه في الكلدانية خزي وبالعربية خضع. وقد يُنسب هذا الوصف إلى كنعان الذي لعنه أبوه. ولكنه لا يصحّ بمعنى الأرض المنخفضة، كما تسمى «هولندا» اليوم، لأن المنطقة التي أُطلق عليها اسم كنعان هي أرض جبلية في الغالب، وليس فيها إلا سهول ساحلية ضيقة تكاد لا ترى ولا تقارن بحجم الجبال.

وكان يُعتقد أن لفظة كنعان تعني الأرض المنخفضة دلالة على الساحل اللبناني ـ الفلسطيني، مقارنة بالأرض المرتفعة، أي جبل لبنان. وكان يُظن اعتماداً على ذلك أن هذه اللفظة سامية الأصل.

ولكن دراسات وتحليلات أخرى أظهرت أن هذه اللفظة غير سامية، فهي لفظة حورية (كنجي) وتعني الأرجوان الذي اشتُهر الفينيقيون بصناعته.

الفصل الثاني

جغرافية لبنان

يقول علماء الجيولوجيا إن لبنان كان مغموراً بالمياه حتى العصر الجيولوجي الثالث، حيث انخفضت المياه نتيجة ارتفاع قاع البحر، وظهرت اليابسة. وتدلّ إلى ذلك مجموعات المتحجرات البحرية التي عُثر عليها في الصخور في أماكن مختلفة من الجبال اللبنانية.

وكان لبنان في ما مضى مؤلفاً من سلسلة واحدة من الجبال، ولم يكن هناك سلسلتان غربية وشرقية يفصل بينهما سهلُ البقاع. ويقال إن زلزالاً عنيفاً فصل السلسلتين وكوّن سهل البقاع.

ولبنان هو في الواقع اليوم مجموعة جبال ومرتفعات مع سهل ساحلي ضيّق يمتدّ على طول البحر الأبيض المتوسط. وجبال لبنان هي جزء من مجموعة جبال تبدأ مع جبل اللكام في شمال سوريا وتنتهي بجبل سيناء في مصر.

جبال لبنان هي القمم الأعلى في مجموعة الجبال هذه، وأكثرها وعورة وتعرّجاً، وأغناها بالمياه والتنوّع النباتي. وأعلى قمة هي القرنة السوداء في السلسلة الغربية، ويبلغ ارتفاعها ١١٠٢٤ قدماً.

السلسلة الغربية

السلسلة الغربية من جبال لبنان هي من أعلى القمم في مجموعة الجبال في المنطقة، وهي مجموعة قمم تعلو وتنخفض مشكّلة ما يشبه السدّ المنيع الممتدّ من الشمال إلى الجنوب. وتقع الجبال الأعلى والأكثر وعورة في الجزء الشمالي من هذه السلسلة. وهذه السلسلة هي التي شكّلت عبر التاريخ ما عرف بـ«جبل لبنان». وتتميّز بجمالها وجلالها وسعتها وإشرافها المباشر على الساحل اللبناني وعلى العاصمة، بحيث تمكن رؤية القمم المكلّلة بالثلوج، من شاطىء البحر.

وتتميز هذه السلسلة الجبلية بارتفاع قممها وعمق أوديتها السحيقة، الخالبة

الألباب. وأهم هذه الأودية تقع في الجزء الشمالي من السلسلة، وأبرزها وادي قاديشا، ووادي نهر إبراهيم.

ويُعتبر وادي قاديشا، وهذه لفظة سريانية تعني وادي القديسين، من أكثر الأودية مهابة وجلالاً في الجبال اللبنانية، نظراً إلى عمقه وشدة انحدار سفوحه. فهو يمتدّ من أقدام غابة الأرز الشهيرة حتى ساحل طرابلس. ويبلغ أقصى عمق له ١٧٠٠ قدم. وعلى جانبي الوادي صخور قوية تقف كجدران للوادي. ويسير في هذا الوادي نهر قاديشا أو نهر أبو علي، الذي يصبّ في البحر على ساحل طرابلس.

ووادي قاديشا أو وادي القديسين، هو بالفعل بقعة قداسة وترهّب. فقد كان منذ العصور الوسطى ملجأ آمناً للمسيحيين الهاربين من الاضطهاد، والذين اختبأوا في هذه الصخور الصلدة. فهناك العديد من الأديرة المبنية في الصخور كدير مار انطونيوس قزحيًا ودير مار ليشع، وهناك العديد من المغاور المنحوتة في أعلى الصخور والتي كان يلجأ إليها المسيحيون الأوائل. ويسأل الناظر إليها باستغراب كيف كان يمكن لهؤلاء الوصول إليها وتسلّق الصخر. بالفعل إن الإيمان يفعل العجائب.

وأبرز الأديرة في هذا الوادي المقدس دير قنوبين الذي كان مقرّاً للبطريركية المارونية.

أما وادي نهر إبراهيم، فهو من الأودية الشديدة التعرج والجمال، يجري فيه النهر الذي بُنيت حوله أسطورة أدونيس وعشتروت، حيث تسيل دماء أدونيس وتبكيه حبيبته عشتروت، وينبعث مجدداً في الربيع عبر الورود الحمراء التي تزهر على ضفاف النهر. وينبع هذا النهر من مغارة أفقا التي كانت في الماضي مكاناً لعبادة الأوثان وللفسق والمجون.

السلسلة الشرقية

تمتدّ في مقابل سلسلة جبال لبنان الغربية سلسلة جبلية مواجهة، هي سلسلة

جبال لبنان الشرقية، ويفصل بين السلسلتين سهل البقاع. وقد أُطلق على هذه السلسلة اسم Antiliban، أو لبنان المقابل، وتشكّل قممه حدود لبنان التي تفصله شرقاً عن سوريا.

أما الجبال في هذه السلسلة فهي أقلّ ارتفاعاً ووعورة من جبال السلسلة الغربية، كما أنها أقلّ خصوبة، نظراً إلى المناخ الجاف نسبياً الذي يسيطر عليها. فالأمطار هنا قليلة والرطوبة كذلك، لأن الغيوم الآتية من الغرب تصطدم بسلسلة جبال لبنان الغربية العالية، فتسكب أمطارها هناك، ولا تترك إلا القليل للسلسلة الداخلية.

ومناخ هذه السلسلة يعتبر جافاً قياساً إلى مناخ السلسلة الغربية. والأنهار التي تنبع من سفوحها قليلة أيضاً. لذلك خفّ النبات وكذلك تجمّع القرى.

أما أهم الجبال في هذه السلسلة فهو جبل حرمون، أو جبل الشيخ. وأكمة حرمون هي كلمة عبرية تعني مقدّس، إذ إن هذا الجبل كان لمدة طويلة جبلاً مقدساً مكرساً للإله بعل - حرمون. أمّا تسمية «جبل الشيخ» فمردّها إلى الثلج الذي يغطي قممه وسفوحه أشهراً طويلة من السنة، تماماً كالشعر الأبيض في رأس الشيخ. ويشكّل هذا الجبل حدوداً بين لبنان وفلسطين ويشرف على الأردن.

الساحل

هو ساحل ضيّق في الإجمال. يبلغ أوسع مجال له في طرابلس، حيث يكون عرضه أربعة أميال، فيما يغتسل الجبل بالبحر مباشرة عند صخرة نهر الكلب، التي كانت تدحر المحتلّين في معظم الأحيان.

ويتميّز الساحل اللبناني، على ضيقه، بخصوبته؛ ففيه تمرّ لتصبّ في البحر معظم الأنهار اللبنانية التي تنبع من أعالي السلسلة الشرقية، وهو يشهد غزارة نسبية في الأمطار. كما أن طبيعة أرضه وتربته ملائمة لنمو الزرع، بسبب الطمي الذي يأتي مع السيول من الجبال. ويسمح المناخ بزراعة أشجار الفاكهة والخضار، إضافة إلى أنواع من الفاكهة الاستوائية كالموز.

والساحل اللبناني هو أرض غنية بالآثار القديمة، فقد كان محطاً لتوالي الحضارات التي سكنت هذه الأرض، وعليه تقع مدينة جبيل، من أقدم المدن في العالم.

ويتّسع هذا السهل حوالي الكيلومتر في أراضي البترون وجبيل، ثمّ يتّسع أكثر في بيروت، حيث يبلغ طوله ٢٦ كيلومتراً وعرضه ٩ كيلومترات. أما في الجنوب فيصبح هذا الشاطىء الحجري، شاطئاً رملياً أكثر فأكثر.

أمّا سهل صيدا وبساتينه المشهورة، خصوصاً بزراعة الحمضيات، فلا يبلغ عرضه أكثر من ٤,٥ كيلومترات. وإلى الجنوب يقع سهل صور البالغ عرضه ٨ كيلومترات وطوله ٢٣ كيلومتراً. ويتميّز بتربة شديدة الخصوبة.

سهل البقاع

سهل البقاع، حسب التحديد الجيولوجي، هو شقّ أو تصدّع يفصل بين سلسلتين جبليتين. وجغرافياً هو سهل منبسط يرتفع عن سطح البحر حوالي ٩٠٠ متر. في الداخل اللبناني يبلغ طوله ١١٠ أميال وعرضه يتراوح بين ٦ و١٠ أميال.

ويتميّز سهل البقاع بمناخ صحراوي جاف، بارد في الشتاء وحار في الصيف. وتتميّز تربته بخصوبتها الشديدة، نظراً إلى طبقات الرواسب والطمي التي تغمرها ومصدرها الجبال. وهو كان منذ القديم المصدر الأساسي للحبوب والمزروعات المختلفة، التي كانت تغذي السكان المحليين والجيران.

ويمرّ في هذا السهل نهران كبيران: نهر العاصي الذي ينبع من لبنان ويصبّ في سوريا، ونهر الليطاني، وهو أطول الأنهار اللبنانيّة، وهو يصبّ في منطقة القاسمية جنوب لبنان.

لبنان جيولوجياً:

السطح والأنهار والمغاور

الطبقات الجيولوجية

تتألّف الطبقات الصخرية في جبال لبنان وسهوله من طبقة كلسية عليا، ثم طبقة كلسية سفلى. وقد ارتفعت الطبقات الكلسية التي تتكوّن عادة في قعر البحار إلى أعالي الجبال في لبنان بسبب حدوث تقلّصات جيولوجية، وانخفاض مياه البحر.

وتسمح الطبقة الكلسية العليا بتسرّب مياه الأمطار إلى الداخل، حيث تتجمّع المياه وتُختزن في الطبقات الرملية الدلغانية. ومن هنا تنفجر الينابيع المتعددة التي تغذي الأنهار المنسابة من الجبال اللبنانية.

أما الطبقة الرملية فهي طباشيرية، وكذلك الطبقة الكلسية العليا. وأمّا الطبقة الكلسية السفلى فهي من النوع الجوريّ.

وتتخلّل الصخور اللبنانية طبقات من الحديد الخام والفحم الحجري الذي يعرف باسم lignite، إضافة إلى صخور بركانية ونارية ورسوبيّة. وهذه التربة هي رملية حمراء تسمّد الأرض وتجعلها أرضاً خصبة صالحة لنمّو الزرع.

والصخور اللبنانية هي من العمر الجيولوجي الثاني، تتراكم فوق بعضها طبقات طبقات، مكوِّنة صخوراً صلدة من الترسبات. وهناك تجاويف مملوءة رملاً أو بلّوراً، وصخوراً رملية ومعدنية وصوانية، وقد أحدثت الطبيعة داخل هذه الطبقات المتراكمة مغاور عميقة، أهمها مغارة جعيتا التي ترسم في داخلها لوحات وتماثيل من الكلس المتجمد.

أما الصخور البركانية فتتركّز خصوصاً في الجنوب، قرب جبل الشيخ ووادي التيم، وفي الشمال وجبل عكار تحديداً.

وكما ذكرنا سابقاً، فإن المياه كانت تغطي الجبال اللبنانية منذ العصور السحيقة وحتى العصر الجيولوجي الثالث حيث انخفض مستوى الماء وظهر لبنان، جبالاً وعرة متعرجة، وهذا شأن الجبال الحديثة العهد نسبياً. وعُثر في الصخور اللبنانية على متحجرات لحيوانات وأسماك، وخصوصاً في ساحل علما (كسروان) وفي قرية حاقل (جبيل).

وتتميز الجبال العالية، أو الجرود، بأنها قاحلة، لا نبات فيها تقريباً. والسبب في ذلك هو عوامل التعرية والتآكل. فمياه الأمطار والأنهار تجرف التربة من الجبال والسفوح إلى السواحل، كما أن الرياح تجعل الصخور تتآكل عبر السنين. ومن العوامل التي تجعل الأرض جرداء قطع الأشجار عبر العصور، هذه الأشجار التي تقوم جذورها بالإمساك بالتربة ومنع انجرافها.

وتصلح القشرة الكلسية التي تغطي الجبال اللبنانية كمواد خام لصنع حجارة البناء، كما أن في بعض الجبال العالية مقالع للحجارة ولاستخراج البلاط، كقرية كفرحونة في منطقة جزّين. كما يستخدم الكلس لصنع الطين بعد حرقه في أتونات كبيرة.

أما المعادن فهي نادرة حالياً في التربة اللبنانية بسبب طبيعة الأرض الكلسية والتي كانت مغمورة بالمياه، كما أوردنا سابقاً. أمّا قديماً فيأتي ذكر لوجود بعض الحديد والنحاس، في بيروت تحديداً وعند سفوح جبل صنين في منطقة المتن.

ويستخرج من الطبقة الرملية التي تكوّن الأرضَ اللبنانية الفحم الحجري، وهناك مقالع في بعض قرى الجنوب، إضافة إلى مواد الحمّر والزفت.

واستخدم الفحم الحجري لتسيير القطارات في الحرب العالمية الأولى والثانية وكوقود في معامل الحرير، الذي يستخرج من خيوط دود القزّ. ويوجد الفحم الحجري خصوصاً في ميروبا وفالوغا. وهذا الفحم غالباً ما يكون ممزوجاً بحامض

الكبريتيك، ممّا يجعل استخراجه صعباً وفي حاجة إلى كلفة كبيرة. من هنا فقد تراجعت كثيراً عملية استخراجه التي بدأها اللبنانيون.

كما نقّب اللبنانيون قديماً عن الحديد، ولكنهم اكتشفوا لاحقاً أن كلفة استخراجه غالية جداً، مع أن حديد لبنان من النوع الجيد والخالص تقريباً في نسبة كبيرة.

ويقال أيضاً أنه عُثر في لبنان على معادن كالنحاس والتوتيا والذهب والفضة. وكانت تصنع من هذه المعادن أدوات عدة في زمن الفينيقيين ومن أتى بعدهم. وهناك آثار مناجم ومعادن مصهورة تؤكد صحة ذلك.

ولكن صناعة استخراج المعادن تراجعت حتى اختفت تماماً في لبنان.

مناخ لبنان

يقع لبنان ما بين خطي العرض ٣٣ و٣٥ درجة، أي أنه في القسم الشمالي للكرة الأرضية. لكنه يميل إلى الجنوب، ممّا يترك مناخاً معتدلاً دافئاً، خصوصاً على الساحل وفي البقاع، ومناخاً أكثر برودة وجفافاً في أعالي الجبال.

وكلما ارتفعت مئتي متر عن سطح البحر انخفضت الحرارة درجة واحدة تقريباً.

وما يميّز مناخ لبنان وجود فصلين بارزين، هما فصل الشتاء وفصل الصيف، يفرّق بينهما فصلا الربيع والخريف. وهما فصلان انتقاليان وسريعان، لا تكاد تشعر بمرورهما. فالانتقال من البرد إلى الحرّ سريع نسبياً في لبنان. وتظهر الفصول الأربعة واضحة أكثر في الجبال العالية، حيث يدوم الربيع والخريف مدة أطول.

وسبب هذا المناخ هو وجود لبنان تحت تأثير تيارين بارد وحار، الأول يأتيه من أوروبا وتركيا، والثاني من الجنوب والشرق.

وتشتدّ الرياح الباردة في فصل الشتاء وتهطل الأمطار بغزارة، خصوصاً في شهري كانون الثاني وشباط، كما تتساقط الثلوج مرّات عدّة في الجبال، وهي تبقى

على مدار السنة في القمم العالية كقمة القرنة السوداء في سلسلة جبال لبنان الغربية.

ويبلغ معدل سقوط الأمطار السنوي على الساحل ٣٣ قيراطاً، فيما يبلغ هذا المعدل في الجبال ٥٩,٧ قيراطاً.

أمّا في البقاع، فإن المعدل السنوي لتساقط الأمطار يبلغ ٢٨,٤ قيراطاً.

وفي الصيف يتأثر لبنان برياح حارة تهبّ عليه من الصحراء العربية، وترتفع الحرارة أحياناً إلى ٤٠ درجة، وممّا يزيد في هذه الحرارة صفاء الجوّ فوق حوض المتوسط وغياب الغيوم، ممّا يسمح لأشعة الشمس بالسطوع وزيادة الحرّ والقيظ، ويشتدّ الحرّ على الساحل، فيما ينخفض تدريجياً كلّما ارتفعت إلى أعالي الجبال.

وتهبّ على لبنان رياح جنوبية ورياح شرقية، مصدرها خط الاستواء أو الهند، وتسمّى هذه الرياح «الرياح الشرقية»، وتكون جافّة جداً، لكنها لا تدوم في لبنان أكثر من يومين أو ثلاثة. وهذه الرياح تحمل معها رمولاً من الصحراء.

ويتأثر مناخ لبنان أيضاً برطوبة مرتفعة نسبياً، تبلغ أقصاها في الصيف، ممّا يزيد الجوّ ثقلاً وإزعاجاً. ويترك في الهواء ذرّات كالغبار، تُرى كثيفة عن بعد خصوصاً فوق بيروت.

مياه لبنان: الأنهار

لبنان بلد غني بالمياه، مياه الينابيع والأمطار. فالأنهار فيه كشرايين الدماء في الجسد، تغذيه بالحياة. وبسبب الأمطار الغزيرة التي تتساقط في الشتاء وبفضل طبيعة الأرض المكونة من طبقة كلسية ثم من طبقات دلغانية، فإن مياه الأمطار تخترق الطبقات الكلسية وتتجمّع داخل الطبقات الصلصالية والدلغانية، وتبحث لها عن مخرج لتنفجر ينابيع كثيرة.

إلاّ أن كمية كبيرة من مياه الأمطار تذهب هدراً، لأن الطبقات الكلسية تمتصّها من دون أن تتجمّع في ينابيع.

نهر الدامور: ينبع هذا النهر من نبع الصفا في جبل لبنان، وينساب إلى البحر

ليصبّ قرب بلدة الدامور، وليغذّي سهلها الخصب الشهير بالمزروعات من الليمون والموز والحمضيات.

ويعتقد أن تسمية الدامور هي اسم إله فينيقي Damuras. ومسافة سير النهر حوالي ٣٢ كيلومتراً.

نهر الأوّلي: يتدفّق من جبل الباروك، وينضم إليه نبع جزين وشلاّله الشهير، ويصب في البحر عند مدخل مدينة صيدا الجنوبية. وسميّ الأولي، نسبة إلى المدينة الأولى، بعدما صارت صيدا المدينة الأولى في الجنوب. وكان هذا النهر يسمّى قديماً نهر الفراديس بسبب البساتين الكثيرة حوله، أو لأنه ينبع من منطقة اسمها الفراديس. ومسافة سير هذا النهر حوالي ٥٣ كيلومتراً.

نهر بيروت: يبدأ هذا النهر رحلته من تحت دير القلعة ويصل إلى سهل بيروت، ويسقيه قبل أن يصبّ في البحر قرب خليج مار جرجس، ومسافة سير هذا النهر حوالي ٢٠ كيلومتراً.

نهر الكلب: يخرج نهر الكلب من مغارة جعيتا في جبال كسروان، وهذه المغارة هي أكبر مغارة في لبنان وأروع مغارة، لما فيها من تماثيل نحتتها الطبيعة من الصواعد والنوازل المتكونة من تجمع الكلس المترسب في المياه. وتنحدر إلى هذا النهر شتاءً السيول من أعالي كسروان ونبع العسل ونبع اللبن ونبع الصليب.

ويبعد النبع عن المصب حوالي خمسة أميال. وتعود تسمية هذا النهر بنهر الكلب إلى اعتقاد بأن كلباً شرساً كان يحرس هذا النهر. وكان ينبح كلّما اقترب أحد من مصبه. وأُقيم تمثال لهذا الكلب، تبيّن لاحقاً عندما عُثر عليه في العام ١٩٤٢ أنه كان تمثالاً لذئب وليس لكلب. من هنا نفهم لماذا كان بعض المؤرخين يسمون النهر «نهر الذئب».

نهر إبراهيم: ينبع هذا النهر من مغارة أفقا، ويُظن أن مياه هذه المغارة تأتي من بحيرة اليمونة التي تبعد عن النهر مسافة ١٣ كيلومتراً.

ومياه بحيرة اليمونة تتناقص أو تزداد تبعاً للفصول، فهي تبدأ بالامتلاء في

فصل الربيع بفضل فيضان النبع المسمّى «عين الأربعين شهيداً». وهذا النبع يفيض في شكل مفاجىء في أوائل آذار تقريباً، متزامناً مع عيد الأربعين شهيداً الذي يصادف في ٩ آذار. هذه المياه تكوّن بحيرة عرضها حوالي ٥٠٠ متر وطولها ألف متر. ولكن هذه المياه تخفّ كثيراً في الصيف. والأمر ذاته تقريباً يحدث في مغارة أفقا، ممّا يجعل نهر إبراهيم يفيض في الشتاء وينضب في الصيف.

ويجري نهر إبراهيم مسافة عشرين كيلومتراً في وادٍ ضيّق متعرّج وسط الصخور وباندفاع قوي أحياناً. ويصبّ قرب مدينة جبيل، حيث يغذّي سهلها ومزروعاتها بالمياه.

نهر إبراهيم عرف قديماً بنهر أدونيس، نسبة إلى الأسطورة التي تقول إنّ الإله أدونيس افترسه خنزير برّي وفاضت دماؤه حمراء في هذا النهر، وأتت حبيبته عشتروت إلهة الخصب والجمال تبكيه، ولكنه يبعث في الربيع مع زهور الأقحوان الحمراء. وهذا النهر الذي يفيض فعلاً في الشتاء ويمتزج بالتربة الحمراء، فيضفي لوناً أحمر كلون الدم.

أما تسمية نهر إبراهيم، فيُعتقد أنها أُطلقت على هذا النهر إبان الفتح العربي، بعد تبديل اسم أدونيس الوثني.

نهر قاديشا: تتفجر مياه نهر قاديشا في سفح غابة الأرز وتسير في وادي قاديشا مسافة حوالي ٢٣ كيلومتراً قبل أن تصبّ في البحر قرب مدينة طرابلس.

سمّي بنهر قاديشا نسبة إلى وادي قاديشا، أو وادي القديسين. وعندما يسير هذا النهر في مدينة طرابلس يُطلق عليه اسم نهر أبو علي، ويعتقد أن هذا الاسم أطلقه أحد الأمراء العرب.

نهر البارد: ينبع هذا النهر من جبال عكار ويجتاز سهل عكار، حيث يروي مزروعاته، ثم يصبّ في البحر على مسافة ١٣ كيلومتراً شمال مدينة طرابلس.

النهر الكبير الجنوبي: يشكّل هذا النهر الحدود الطبيعيّة القائمة حاليّاً بين لبنان وسوريا من جهة الشمال.

ينبع من الوادي الفاصل بين جبال عكار وجبال وادي النصيرية، ويسير في هذا الوادي، حتى يصب في البحر الأبيض المتوسط على مسافة ٩ كيلومترات تقريباً جنوب مدينة طرطوس السورية.

نهر العاصي: يخرج نهر العاصي من نبع اللبوة في بعلبك ومن مغارة الراهب في جبل الهرمل، ويسير هذا النهر شمالاً ليصبّ في بحيرة حمص في سوريا، ويبلغ عرض هذه البحيرة ١٦٠٠ متر وطولها ٤٨٠٠ متر. ثم يخرج نهر العاصي من بحيرة حمص ويقطع حماه ليصبّ أخيراً في البحر.

أما في تسمية هذا النهر فإن بعضهم يردّ تسميته بالعاصي إلى عصيانه وسيره شمالاً، على عكس باقي الأنهر اللبنانية التي تسير جنوباً. وقد سمّاه اليونان قديماً نهر أكسيوس على اسم أحد أنهارهم. وقد يكون اسم العاصي تحريفاً للاسم اليوناني.

نهر الليطاني: هو أطول الأنهار اللبنانية وأغزرها، وهو يمتاز بين مجاري الأنهار اللبنانية. فقد اجتمعت له كل الخصائص الجغرافية للأنهر، إذ يقع بكامله داخل الأراضي اللبنانية، ويتغذى بالكامل من مياه الأمطار التي تأتي إليه تقريباً من خمس مساحة الأرض اللبنانية، لذلك فإن كميات مياهه تشحّ في الصيف من حزيران وحتى تشرين الأول. وتسمى هذه الفترة فترة الشحاح.

تبلغ المساحة الإجمالية لحوض الليطاني ٢١٧٥ $كلم^٢$. وينبع من نبع العليق في قضاء بعلبك على ارتفاع يتراوح بين ٩٠٠ متر وألف متر، ويصب في البحر بعد أن يجتاز ١٧٠ كيلومتراً.

ويمر النهر في سهل البقاع بانحدار بطيء ثم يدخل في مضيق جبلي ذي انحدارات قوية في منطقة البقاع السفلي.

ويرتفع ٨٠ بالمئة من مساحة حوض النهر فوق مستوى ٨٠٠ متر. ويبلغ سقوط المطر في هذا الحوض نحو ٧٠٠ ملليمتر سنوياً. وعندما يخرج الليطاني من البقاع الأعلى، يهبط إلى ارتفاع ٨٥٠ متراً ويبلغ الانحدار أقصاه إلى ٥٠٠ متر

ضمن مسافة لا تزيد على ٤٠ كيلومتراً.

أهم روافد الليطاني قبل سد القرعون: نهر البردوني، شتورا، الرياشي، الفارغ، الغزيل ونبع الخريزات. وبعد سد القرعون: نهر الشتا وينابيع عين الزرقا، برغز، القلة، الميدنة، وادي الحجير، الغندورية، وادي زيرقون ونبع علمان. وقبل المصب ترفد الليطاني ينابيع غزيرة.

نهر الوزاني: ينبع الوزاني من داخل الأراضي اللبنانية، على مسافة أربعة كيلومترات من الحدود الجنوبية في منطقة جبلية قاسية على تخوم مرتفعات جبل الشيخ الغربية، بالقرب من مزارع سردا والمجيدية والوزاني ومرتفعات الجولان وبلدة الفجر المحتلة. وتندفع مياهه بغزارة جنوباً ثم تلتقي مع مياه نهر الحاصباني ليشكّلا أحد الروافد الرئيسية لنهر الأردن الذي سمي «ابن لبنان الكبير» لهذا السبب. ومعروف أن نهر الأردن مقدس عند المسيحيين لأن السيّد المسيح اعتمد في مائه على يد يوحنا. وقد بدأ المسيحيون بالاعتماد منذ ذلك الحين، والاعتماد سرّ مهم من أسرار الكنيسة.

نهر الحاصباني: يتدفق نهر الحاصباني من النبع الذي يحمل الاسم ذاته في جوار بلدة حاصبيا، ويجتاز مسافة ٢٥ كيلومتراً في الأراضي اللبنانية قبل أن يلتقي الوزاني على مشارف الحدود الجنوبية الدولية. وهو يكون غزيراً في الشتاء، ثم يزداد غزارة مع ذوبان ثلوج جبل الشيخ في الربيع، لكن مياهه تصبح شحيحة خلال الصيف.

المغاور والهوّات

وهبت الطبيعة لبنان تنوّعاً رائعاً في مغاوره بما تتضمنه من ثروات مائية وأثرية وسياحية. وكان بعضها، ولا سيما مغارة انطلياس، من المواطن الأولى لإنسان ما قبل التاريخ. وتقدّر الجمعية اللبنانية للأبحاث الجوفية عدد المغاور في لبنان بنحو ألف، جرى التعرف على ٤٠٠ أو ٥٠٠ منها حتى الآن. وأكبر هذه المغاور تلك الموجودة في جعيتا، وقد تمّ التوصل إلى اكتشاف تسعة كيلومترات منها. ويلي

هذه المغارة تلك الموجودة في جرود العاقورة، وتحمل اسم مغارة الرويس، وتقول الأسطورة أنها تصل حتى سهل البقاع، وكانت ممراً للرومان الذين استخدموا الخيول لعبورها. ويبلغ طول المغارة نحو خمسة كيلومترات. كما أن هناك هوّات عديدة في لبنان، أعمقها تلك الموجودة في ترشيش، ويطلق عليها اسم «فوارة داره»، وعمقها نحو ٦٢٠ متراً.

ويقول خبراء الجيولوجيا إن المغاور تكثر في الجبال الكلسية، وهذه هي طبيعة معظم الجبال اللبنانية. ويلاحظ أن غالبية المغاور تقع في الشمال وجبيل وكسروان ويقلّ عددها في البقاع وتتركز خصوصاً في جرود فاريا وفاريا والفتوح وجرود اللقلوق حيث توجد هوات عدة أيضاً، وفي تنورين ووادي قاديشا حيث جرى اكتشاف مغارة عاصي الحدث. أمّا في البقاع فأبرز المغاور تلك الموجودة في كفرزبد، وطولها نحو مئتي متر، وفيها صالات جميلة. وفي الجنوب هناك مغارة النبع الشتوي. وجرى قبل أعوام كشف مغارة في منطقة الزعرور وهوّة في منطقة مشميشة عمقها ما بين ١١٥ متراً و١٢٠ متراً. وكذلك تمّ التعرف إلى مغارة وادي وطى مشمش في عكار، وهي تبدأ بفوهة ضيقة، وتأخذ بالانحدار بقوة بعد أمتار قليلة. والمغارة اثنتان عملياً يقسمهما المدخل. الأولى عمقها نحو مئة متر، وهي عبارة عن طريق متعرّج ويتّسع ويضيق وتغطيه من الجانبين حتى ارتفاع ١٦ متراً النوازل والصواعد الكلسية البديعة. والثانية يجري تسلّقها حتى خمسة أمتار تقريباً، وهي عبارة عن غرفة عمقها ستة أمتار تنتهي بممرّ ضيّق جداً يصعب دخوله، ولذلك بقي مجهولاً عمق المغارة.

أمّا في انطلياس حيث احتوت مجموعة من الكهوف والمغاور آثاراً للإنسان الأول، فقد فعلت الكسارات فعلها في القضاء على أبرز المعالم الأثرية والطبيعية. وقد طمرت مغارة الشتوية الموجودة مقابل مغارة البلانة بسبب عمل الكسارات، بعدما كانت في الخمسينات مؤهلة لاستقبال روّاد المغاور. ويروي بعض الخبراء في اكتشاف المغاور أنهم توغّلوا نحو كيلومترين ونصف الكيلومتر في المغارة خلال تلك الفترة، فأصبحت تحت بلدة بصاليم، وتحدثوا عن وجود بحيرات جوفية

هناك، أبرزها بحيرة كبيرة تحت كسارات انطلياس، سقفها مميّز بالنوازل والصواعد الكلسية، على غرار مغارة جعيتا.

وفي حزيران ١٩٩٧، تمّ اكتشاف مغارة زين في سير الضنية، وتقع في الجانب الأيمن لبلدة بقاعصفرين والجانب الأيسر لبلدة كرم المهر، ويستغرق الوصول إليها عشر دقائق، وعند مدخلها كمية كبيرة من المياه. ويبلغ طول النفق نحو ٦٠٠ متر، وفيه متدليات ونوازل كلسية يراوح طولها ما بين الـ ٥ و١٠ سنتمترات، وهو يتفرّع إلى أربعة أنفاق: الأول بطول نحو سبعة أمتار. والثاني يبلغ حوالي ٤٠٠ متر وعرضه متران. والثالث يبدأ بمنحدر صغير يليه شلال متدفق، نسبة المياه فيه ٣٢ متراً مكعباً تقريباً، يجري عبوره بالسلالم. والرابع طوله نحو ١٥٠ متراً. وقد تمكّن فريق «النادي اللبناني للمغاور» من بلوغ نقطة تضمّ شكلاً كلسياً ويشبه المدخنة ويتسرب منه هواء بارد، وهناك محاولات للتوغّل في مراحل مقبلة.

وتمّ اكتشاف مغارة كفرحيم في ٣٠ آذار ١٩٧٤ خلال شق الطريق العام التي تربط بلدتي كفرحيم وبعقلين، وهي تتضمن مدخلاً يصل إليه المرء عبر درج لولبي، ثم تبدو أمامه أنفاق عدّة. وفي كل منها روائع طبيعية من النتوءات والأعمدة والفجوات وسط خرير المياه. وفي أحد الأنفاق قاعة تتّسع لأكثر من خمسين شخصاً.

وفي عدلون الجنوبية مغارة على الطريق الساحلي يسمّيها أبناء المنطقة مغارة «أم البزاز»، يعتقد أن تاريخها يرجع إلى العصور الحجرية، لكنها اكتسبت أهمية في المراحل اللاحقة لكونها واقعة على طريق حيوية تربط مدينتي صيدا وصور. وقد عثر فيها على نواويس وآثار تثبت أنها كانت مأهولة. ويتناقل العدلونيون أن النساء كن يقصدن «أم البزاز» من مناطق بعيدة لمسح صدورهن بالمياه المتساقطة من الجدران لاستدرار الحليب. وتعرّضت هذه المغارة لكثير من الإهمال والعبث.

مغارة الراهب: وفي الهرمل مغارة يطلق عليها اسم «مغارة الراهب»، تقع على مقربة من قاموع الهرمل، وهو هرم يرتفع ٢٧ متراً، يعتقد أنه أُقيم في العصر

الروماني على مدفن أمير سوري من القرن الثاني أو الأول قبل الميلاد، والهدف في بنائه كان استخدامه برج مراقبة لتحركات الجيوش الغازية وتنقلات القوافل التجارية والعسكرية، عبر إشارات ضوئية تمتد من بعلبك إلى تدمر.

وعرفت «مغارة الراهب» سابقاً بـ«قصر البناة»، وهؤلاء البناة هم مهندسون شيّدوا قلعة في الصخر خلال العصر الروماني لأهداف عسكرية وتجارية، وكانوا يستريحون فيها خلال عملهم لحفر القنوات المؤدية إلى مملكة تدمر. لكن أهمية هذه القلعة المغارة هي أنها شكلت لاحقاً منطلقاً للطائفة المارونية، إذ استوطن فيها رهبان مار مارون، واحتموا في جوفها هرباً من بطش اليعاقبة الذين بشّروا بالطبيعة الواحدة في السيد المسيح. واستشهد في هذه المغارة ٣٥٠ راهباً، لأنهم رفضوا الخضوع لساويروس بطريرك اليعاقبة.

ففي العام ٥١٧، قتل أتباع القديس مارون، وهم سائرون في المغارة إلى كنيسة القديس سمعان العمودي في جبل بركات، شمال غرب حلب. وتحتفل الكنيستان الشرقية والغربية في ٣١ تموز من كل عام بذكرى استشهاد الرهبان الـ ٣٥٠.

وفي جوار المغارة قناتان حفرتا قرابة العام ٢٠٠ ق.م. تمتدان على نحو تسعين كيلومتراً، وتلتقيان داخل الأراضي السورية في نفق كان يوصل المياه إلى تدمر في عهد زنوبيا. وتمتد القناة الأولى من جانب جسر العاصي الحالي، بينما تصل الثانية إلى نبع اللبوة.

مغارة جعيتا: تعتبر مغارة جعيتا واحدة من أجمل المغاور في العالم. ينبع منها نهر الكلب، وهي تقع في الوادي الذي يفصل ما بين المتن وكسروان، على بعد نحو ١٨ كيلومتراً إلى الشمال من بيروت.

اكتشف المغارة صياد أميركي يدعى طومسون في العام ١٨٣٦، عندما التجأ إليها خلال رحلة صيد. ويروى أن طومسون سمع خرير ماء وهو على باب المغارة، فتملكته الحشرية لمعرفة المزيد وسط الظلام الدامس في الدخل. وما كان منه إلاّ أن اتبع مصدر الصوت فوصل إلى بحيرة جوفية. ثم أطلق عياراً نارياً من

بندقيته، فإذا بالصدى يتردَّد في أرجاء واسعة، ممّا أوحى له بوجود سرداب طويل، لكن مغارة طومسون توقفت عند هذا الحدّ، وعاد لينشر الخبر.

ومنذ ذلك التاريخ، بقيت المغارة نحو ٣٧ عاماً بعيدة عن الضوء ومغامرات الاكتشاف، إلى أن جاء العام ١٨٧٣، عندما كلّف مكتب مياه بيروت المهندسين الأميركيّين ماكسويل وبليس، وهما موظفان في شركة المياه، مهمّة التوغل في المغارة والإضاءة على مزيد من التفاصيل حولها. وتنفيذاً للمهمة، تمّ بناء مركب مصنوع من ألواح خشبية وجلد الماعز، واستخدمه المهندسان للدخول انطلاقاً من البحرية الجوفية. واقتربا نحو خمسين متراً، ثم نفذا إلى سرداب مائي بدأ فسيحاً ثم أخذ يضيق شيئاً فشيئاً إلى أن سُدّ تقريباً بصخرة عظيمة، وتمّ إطلاق تسمية «السدّادة» على هذه الصخرة.

لكن محاولة ماكسويل وبليس لم تتوقف عند «السدّادة»؛ فبعد أيام، جهّزا مركباً آخر ضيقاً تقدّما به واجتازا «السدّادة». وما أن أطلاّ خلفها حتى بُهرا بما وقعت عليه أنظارهما: عالم رائع من الأشكال والألوان، عملت الطبيعة على مدى ملايين السنين لرسمه. وبلغ تقدُّم المغامرين الأميركيين نحو كيلومتر واحد في جوف المغارة. وعند نقطة الوصول وضعا زجاجة فارغة في مكان أطلقوا عليه اسم «دوبانثيون». وما تزال هذه الزجاجة حتى يومنا هذا في مكانها، تكريماً لواضعيها.

ومنذ العام ١٨٧٣، انطلق العديد من المغامرين إلى داخل المغارة المكتشفة حديثاً، ويقدَّر عدد الرحلات الاستكشافية بنحو عشرين حتى العام ١٩٢٤ عندما حاول الدكتور مارش اجتياز المنحدرات، لكنه لم ينجح في تسجيل رقم جديد في التوغّل، وبقيت النقطة القصوى التي يمكن بلوغها هي حدود رحلة ماكسويل وبليس.

ولكن، ما أن طلّ العام ١٩٢٦ حتى بدأ البروفيسور ويست بمغامرة جديدة لتحقيق ما فشل سلفه مارش في تنفيذه، فبنى عوامة قوامها ألواح خشبية تحملها صفائح معدنيّة ملحومة، وركب النهر. وقد نجح ويست في التقدّم عبر المنحدرات، وبلغ توغّله نحو ١٦٠٠ متر. وفي العام التالي، نجحت بعثة

استكشافية يقودها طومسون في التقدم مئتي متر أخرى، أي إلى مسافة ١٨٠٠ متر، ثم توقفت لأن المنحدرات التي بلغتها كانت شديدة القوة، ويهدّد سلوكها بمخاطر.

وبقيت البعثات اللاحقة دون تحقيق أرقام جديدة، إلى أن بدأت محاولات وطنية في هذا الإطار. ونجح ليونيل غرّة وألبير أناتي ما بين عام ١٩٤٦ و١٩٥١ في التوغّل إلى عمق ٢٨٠٠ متر، أي أنهما اكتشفا نحو كيلومتر في جوف المغارة.

وفي العام ١٩٥١، تأسّس النادي اللبناني للتنقيب عن المغاور، وباشر سلسلة محاولات لتحقيق أرقام جديدة في جعيتا، استمرت خلال السنوات الثلاث الأولى من تأسيسه. وفي إحدى الرحلات، تمكّن فريق من أعضاء النادي، بقيادة سامي كركبي، من المكوث سبعة أيام متتالية داخل المغارة، فتوغّلوا نحو ٦٢٠٠ متر. وضمّ الفريق إضافة إلى كركبي وغرّة كلاً من مخباط وخوّام والزغبي وفرّا وكسباريان. إلاّ أن جدولاً قوياً حال دون تقدمهم لمسافة أطول.

وفي آب ١٩٥٥، دشّن الرئيس كميل شمعون بدء العمل لتأهيل مغارة جعيتا وجعلها في متناول الزائرين. وفي العام ١٩٥٧، بدأ توافد الزائرين من لبنان وأنحاء العالم كافة، بمعدّل ٢٠٠٠ سائح يومياً. لكن الزيارات كانت تتوقف شتاء بسبب ارتفاع منسوب المياه.

وفي العام ١٩٥٨، تمّ اكتشاف المغارة العليا المخصصة للمشاة. ويقدَّر ارتفاع المغارة بما بين ٢٠ و٣٠ متراً وعمق المياه بما بين نصف متر وخمسة أمتار، ويبدو قعر النهر بوضوح معظم الأحيان نظراً إلى نقاء المياه.

وتمتاز المغارة بمتدليات وأعمدة كلسية رائعة الجمال ومتنوعة الألوان. ويقول اختصاصيون إن تكوين هذه الترسبات المعروفة علمياً باسم «ستالاغميت» و«ستالكتيت» يحتاج إلى ما بين قرنين وثلاثة لكل سنتيمتر مكعّب، ممّا يعني أن ملايين السنين استغرقها تكوّن هذه المغارة الرائعة.

مغارة قاديشا: تقع على مسافة ١٠٤ كيلومتر من بيروت، في ناحية من بلدة بشري الشمالية، وترتفع ١٧٥٠ متراً عن سطح البحر، ومنها ينبع نهر قاديشا (أي

أبو علي عند مصبّه في طرابلس).

تماثل محتويات هذه المغارة إلى حدّ ما تلك التي تتضمنها مغارة جعيتا. وقد لاحظ نادي بشري الثقافي في بحث أجراه قبل أعوام أن في المغارة أعماقاً تقارب الـ ١٤٧٠ متراً بعرض ما بين ٨ أمتار و١٥ متراً. إلاّ أن الأغوار النهائية للمغارة ما زالت خافية على الباحثين نظراً إلى صعوبة بلوغها والمخاطر الجسيمة التي تحيط بها.

اكتشف المغارة في العام ١٩٠٣ الخوري حنا يعقوب المعروف بناسك دير مار يوسف الذي كان راغباً في الوصول إلى النبع الذي يتدفق منه نهر قاديشا. وقد نجح في بلوغ عين الماء الواقعة في أعلى جورة التركمان المعروفة بعين الجورة. وارتدّ أول الأمر لشدة البرد، لكنه حاول مجدّداً وتمكّن من تحديد أطراف النهر.

وبعد وفاته، قامت بعثة في العام ١٩٢٥ مؤلفة من المهندس ألبير النقاش والأب مطانيوس جعجع يرافقهما حنا دلا جعجع وبطرس شبيعة وقرّرت الدخول إلى الثغرة. وكانت المحاولة الأولى للأب جعجع ودلا اللذين اكتشفا قرابة ٢٢٠ متراً من المغارة. ثم جهّز الفريق نفسه بثياب سميكة تقي أعضاءه الصقيع القارس الذي يميّز أعماق المغارة، وبالقناديل والمعاول، واجتازوا نحو سبعمئة متر عمقاً، وارتسمت أمامهم لوحات مذهلة من الصواعد والنوازل الكلسية المتنوعة الأشكال والألوان. وما تزال هذه المغارة محط أنظار السياح الذين يردون إليها من أنحاء العالم كافة لمواكبة انطلاقة النهر المقدس، نهر قاديشا من صدر أمه، مغارة قاديشا ومن عمق ٧٧٨ متراً.

وتقع مغارة قاديشا على فوهة وادي قاديشا الشديد الانحدار والذي شكّل ملاذاً لساكنيه من الغزوات والحروب ومسكناً لنساك عبر الأجيال. وقدَّر الرحالة الفرنسي جان دو لا روك الذي زار لبنان في القرن السابع عشر نقلاً عن رهبان قنوبين عدد المغاور في وادي قاديشا، بنحو ثمانمئة، وهي كلها مغاور قديمة، لكن الإنسان تدخّل لجعلها أكثر ملاءمة للسكن أو للحماية أو للعبادة أو للتعليم، على غرار ما كانت عليه مدرسة «مغارة سيدة لوقا» التي كانت تتولى التعليم الإكليريكي.

وجرى قبل أعوام قليلة اكتشاف ثماني مومياءات كانت مدفونة في إحدى المغاور، تعود إلى القرن الثالث عشر.

مغارة قانا: على مسافة ١٢ كيلومتراً شرق مدينة صور، تقع مغارة تكتسب أهميتها من كونها، وفق العديد من الدارسين في العقود الأخيرة، شهدت الأعجوبة الأولى التي قام بها السيد المسيح، أي تحويل الماء إلى خمر. فثمة دراسات تؤكد أن هذه المغارة الواقعة في بلدة قانا الجنوبية هي ذاتها مغارة قانا الجليل.

وتقع المغارة على منحدر صخري صعب في الغرب الشمالي للبلدة. وعلى صخرة أمامية منفردة جرى نحت أشكال لمجموعة من الأشخاص يقول البعض أنها تمثّل تلامذة المسيح الإثني عشر. وفي وسط هذه المجموعة التي جرى ترتيبها في شكل صفّ، شخص بارز تحيط هالة برأسه، وبدا رفاقه من اليمين واليسار مختلفي الأحجام، ممّا يعزّز الاعتقاد بصوابية النظرة القائلة بأن قانا الجنوب هي ذاتها قانا الجليل. وخلف هذه المنحوتة، تبرز أشكال أخرى في الجدار الصخري الطبيعي تمثّل أشخاصاً جرى التعبير عنهم في شكل أقرب إلى الايقونات المسيحية.

ويقول الدكتور يوسف الحوراني (ملحق «النهار» ٢٥/ ١٢/ ٩٣) إن «الأوضاع البارزة توحي بالخشوع والتعبّد كضمّ الأيدي إلى الصدر أو رفعها نحو العلاء. كما أن بينها رسماً لرجل حافي القدمين. وعلى انفراد يوجد نحت واضح لشخص امرأة تظهر ثنيات ثوبها بوضوح، ممّا يشير إلى تمكّن فنّي لدى النحّات، ويؤكد في الوقت نفسه على رمزية صخرة المقدمة التي تمثل يسوع وتلامذته، كما يؤكد على مسيحية المجمع الذي صنع المنحوتات لكون المرأة برز لها دور مهمّ مع المسيحية في المجتمع وليس قبلها. وفي أسفل هذه الصخور مغارة واسعة ينفتح بابها على المنحدر، ولا يلاحظ وجودها إلا من يقصدها. وهي ملجأ مثالي للباحثين عن الملجأ. وكاد أهل القرية يجعلون من هذه المغارة أسطورة بذاتها، حيث ظنوا أنها تذهب بعيداً داخل الجبل، لكون أحد سراديبها عميقاً في الداخل وضيّق الباب».

ويستشهد المؤرخ بكتاب المؤرخ الأسقف أوزابيوس (٢٦٥ ـ ٣٣٩م)، وهو لا يزال باليونانية، ويعود نشره باللاتينية إلى العام ١٨٦٢، وهذا الكتاب يؤكد أن

قانا صور هي ذاتها قانا الجليل إذ يقول: «قانا، حتى صيدون الكبيرة، لقبيلة أشير. في هذا المكان حوَّل ربنا وإلهنا يسوع المسيح الماء إلى طبيعة الخمر، وفيها أيضاً كان نتنائيل، وهي قرية في الجليل».

وتقع بلدة قانا على سلسلة من الروابي، والرابية الأعلى بينها يقوم عليها معبد الجليل، الذي تنتسب إليه البلدة. وفي ساحة المعبد كشف أحد أبناء القرية عن مجموعة أجران حجرية، توافق سعة الواحد منها السعة التي ذكرها إنجيل يوحنا. وهذه الأجران لا يقلّ عددها عن الستة المذكورة في النص، وموقعها يناسب الموقع المفترض. «فالمنطقي أن تكون أجران ستة في بيت خاص، وإنما الأرجح أنها كانت في مكان عام يخصّ المعبد أو معصرة للعنب أو الزيت. وهذا يقتضي أن يكون مكان حفلة العرس في مكان عام يتسع للمدعوّين ولموائد الدعوة. وأفضل الأماكن باحة المعبد».

هوّة قطين عازار: ومن أحدث الاكتشافات في عالم المغاور في لبنان، اكتشاف هوّة عظيمة تقع بين عينطورة المتن ومجدل ترشيش. ففي ربيع العام ١٩٩٦، عثر طوني بطرس عازار وشقيقه نهرا على هوّة عميقة في مغارة تقع عند الشير بين عينطورة ومجدل ترشيش، فغامرا بدخولها وتسلقا جدراناً ترتفع عشرة أمتار، ثم زحفا داخل سرداب ضيّق طوله نحو ٣٦ متراً فبلغا فوهة بئر يلفحها هواء بارد، واكتشفا أن القعر عميق، لأنهما رميا حجراً استغرق وصوله لحظات طويلة (النهار، ١٠ أيلول ١٩٩٦).

ثم عمل الأعضاء في الجمعية اللبنانية لدراسة المغاور على استجلاء خفايا الهوّة، وقرّروا خلال الصيف التالي القيام بعملية استكشاف أولى روّداها فريق صغير. لكن الرحلة كانت شاقة بسبب ضيق السرداب وتعرُّجه. وقد استمرت اثنتي عشرة ساعة، استطاع خلالها فريق مؤلف من ثلاثة أشخاص أن يكتشف بئرين: الأولى عمقها ستون متراً والثانية عمقها خمسة عشر متراً، ويربط بينهما سرداب.

وبعد ستة أيام، قام فريق ثانٍ بعملية استشكاف جديدة بلغ فيها عمق مئة وعشرين متراً. وبعد ثلاثة أسابيع عاد الفريق الصغير إياه ليتوغّل مئتين وخمسة

وثلاثين متراً، حيث انكشفت الهوّة على بئر يقدّر عمقها بنحو ١٥٠ متراً. وروى عضوا الفريق فادي بعينو وبيار أبي سعد أنهما اكتشفا في الهوّة «جمالات طبيعية وأشكالاً ذات تكوينات ترسبية وكلسية متعدّدة الألوان تشبه اللالىء والأقراط، فيظنّ المرء أنه إلى حدّ ما في مغارة جعيتا».

ثم اتسعت دائرة الباحثين، وانطلق فريق أطلق على نفسه اسم بعثة الثالث من آب، وبدأ في ذلك اليوم من العام ١٩٩٦ مهمة هدفها تنفيذ مسح طوبوغرافي للأجزاء المكتشفة والتقاط صور فوتوغرافية ودرس السبل التقنية لمواجهة المناطق الصعبة بالمعدات المناسبة. وتولّى فادي مهنا التحضير للأمتار السبعين الأولى للبئر الكبيرة البالغ عمقها ١٨٢ متراً. وهذا الرقم قياسي بالنسبة إلى لبنان والشرق الأوسط، إذ يشكل أعمق هوّة عمودية معروفة في المنطقة، ذلك أن الرقم القياسي السابق هو للبئر القائمة في هوّة البدوية، ويبلغ ١٦٤ متراً، وتقع هذه الهوّة ما بين فاريا وأفقا.

وفي ٢٤ آب، عملت ثلاث فرق على سبر الأغوار المكتشفة، فوجد أحدها على عمق ٤١٧ متراً غرفة رملية يليها سرداب متعرّج طوله مئات الأمتار، وسمع أعضاؤه الثلاثة هدير نهر جوفي عظيم يسري في سرداب يتراوح عرضه ما بين أربعة وخمسة أمتار ويتدفّق بقوة مئة ليتر في الثانية. وقد استمرت رحلة هؤلاء خمس عشرة ساعة، وعادوا بعدها إلى السطح وفي أذهانهم أسئلة عدّة عن مصدر هذا النهر الجوفي وعلاقته بالنهر الجوفي لهوّة فوار داره على بعد كيلومترات من هوّة قطين عازار. وقد قرّر أعضاء جمعية دراسة المغاور وضع هذه الهوّة في برنامج عملهم لاكتشاف أسرارها.

الفصل الثالث

ما قبل التاريخ:

المراحل الأولى للحياة في لبنان والشرق الأوسط

تاريخ حياة الأرض والقارات

لا يمكن للعلماء أن يعرفوا بدقة كيف تطوّر شكل الأرض واليابسة منذ تكوُّن الكرة الأرضية قبل ٤,٥٥ مليار سنة، إنما يمكنهم تحديد التغيّرات التي لحقت بأشكال اليابسة ابتداء من ٦٠٠ مليون سنة قبل وقتنا الحاضر، أي ما يوازي تسع تاريخ كوكبنا. ويعني ذلك أن المعلومات عن بدايات الحياة في الأرض، وتالياً في الشرق الأوسط، ما تزال في إطار التخمين والفرضيات النظرية المختلفة.

وما تزال المعلومات شبه معدومة عن الحقبة الأولى من تاريخ الأرض، والتي يُقدر عمرها بمليار و٥٠٠ مليون سنة. لكن بعض العلماء يطرحون فرضيات مفادها أن تكوُّن اليابسة نجم عن ارتفاع بعض الترسبات من عمق الأرض والتي تراكمت عبر ملايين السنين لتشكّل صفيحة قاسية غير قابلة تقريباً للتبدّل، وهذه الصفائح هي التي شكّلت لاحقاً القارات، وفق بعض الدارسين.

وكانت التقلبات الطبيعية والمناخية حادة جداً في الحقب الأولى من حياة الأرض، ودامت ملايين السنين قبل أن يستقرّ المناخ نسبياً. وتُظهر المتحجرات التي عُثر عليها في أنحاء مختلفة من الكرة الأرضية أن المناطق الحارة الآن كانت باردة جداً في الحقبات السابقة والعكس صحيح أيضاً. أما في العصور الجليدية، فإن الجليد تكوّن في شكل كثيف عند منطقة القطبين، فيما كان قليلاً عند خطّ الاستواء، كما توزّع في بقاع مختلفة من سطح الأرض.

وقبل ٩٠٠ مليون سنة بدأت مرحلة تغيّرات جيولوجية أدّت إلى شقوق كبيرة في اليابسة الصلبة، التي أصبحت قادرة على حمل الجبال. ويُقدّر الجيولوجيون أن قارة كبيرة ظهرت على وجه الماء قبل ٥٧٠ مليون سنة، نتيجة لانخفاض مستوى البحار.

ومع مرور ملايين السنين تفتّتت هذه القارة الكبيرة إلى صفائح لتتجمع من جديد في قارة جديدة قبل ٢٩٠ مليون سنة، وهكذا نشأت سلسلة جبال الأورال انطلاقاً من الصفيحة السيبيرية، كما نشأت يابسة أفريقيا وأفريقيا الجنوبية والأنتاركتيك والهند وأوستراليا.

وتميّزت الحقبة الممتدّة من ٥٤٠ إلى ٢٤٥ مليون سنة بتوالي العصور الجليدية والعصور الحارة. وكانت بعض الصحارى الحالية مغطاة بالجليد، فيما كانت أوروبا الاستوائية آنذاك مكسوّة بالأشجار الاستوائية التي يتجاوز ارتفاعها الثلاثين متراً.

وابتداء من ٢٤٥ مليون سنة تحركت صفائح اليابسة من جديد، واتسع المحيط الأطلسي، فيما انفصلت الأميركيتان عن أوروبا وأفريقيا، وأكملت الهند التحامها بآسيا عبر المحيط الهندي الموعود. أما أوستراليا فابتعدت صوب المحيط الهادىء.

وتلي هذه الحقبة تلك المسماة الحقبة الجوارسية، وهي العمر الثاني من تاريخ الأرض، وهي شهدت طقساً دافئاً قياساً إلى الحقبات السابقة، على رغم بعض الفترات الباردة التي لم تصل في حدتها إلى برودة العصور الجليدية.

وفي نهاية الحقبة الجوراسية ظهرت سلسلة الجبال الصخرية في شمال أميركا والتي تمتد من الألاسكا إلى المكسيك، كما ظهرت سلسلة الجبال الغربية في أميركا الجنوبية والتي يبلغ طولها ٧٥٠٠ كلم.

واتخذت القارات شكلها الحالي تدريجاً اعتباراً من الحقبة الثالثة (٦٥ إلى ٢ مليون سنة) والحقبة الرابعة (الممتدة حتى عصرنا الحالي).

وأدّى التقاء القارتين الافريقية والأوروبية قبل خمسة ملايين سنة إلى إغلاق منفذ البحر الأبيض المتوسط، الذي فرغ ماؤه وغدا المناخ في محيطه جافاً. ولاحقاً، ونتيجة لتراجع بعض صفائح البرّ، فُتح مضيق جبل طارق، وكشلال هائل، سمح لمياه المحيط الأطلسي بأن تصبّ في المتوسط لتملأه من جديد.

ومرّت الأرضُ بسلسلة حقبات جليدية تخلّلتها فترات معتدلة ذاب فيها الثلج. وآخر حقبة جليديّة كانت قبل مليوني سنة، أعقبها الذوبان الحالي قبل ١٢ ألف أو ١٠ آلاف سنة.

بذور الحياة على الأرض

قبل ظهور الإنسان على سطح الأرض، كانت بذور الحياة البدائية قد بدأت تدبّ قبل ذلك بكثير، ربما قبل ثلاثة مليارات ونصف المليار سنة. وتتضارب النظريات كثيراً حول كيفية تكوّن الحياة، ويظهر التناقض أحياناً في ما بينها، خصوصاً بين النظريتين الدينية والعلمية.

ولكن من دون الغوص في نظريات الخلق، يبدو المثبت علمياً العثور على أصداف متحجرة لكائنات مجهرية أحادية الخلية (والخلية من دون نواة) في أوستراليا وأفريقيا الجنوبية تعود إلى ما قبل ٣,٤ مليارات عام. ولكن هناك شكّاً في وجود مثل هذه المتحجرات قبل ٣,٨ مليارات عام.

وتقول بعض النظريات أنَّ وجود الخلية ذات النواة قد يكون نتج عن اندماج خليتين من دون نواة، وأن ذلك يعود إلى ما قبل مليار وأربعمئة مليون سنة.

أما ظهور أول الكائنات المتعددة الخلايا، فيرجع إلى ما قبل مليار سنة تقريباً. وعُثر على متحجرات لكائنات من الرخويات تعود إلى ما قبل ٦٥٠ مليون سنة، وقد اختفت هذه الكائنات من دون أن تترك مثيلاً لها في نهاية العصر الجيولوجي الأول.

وانطلاقاً من هذا التاريخ وطوال مئة وخمسين مليون سنة تكاثرت الكائنات المتعددة الخلية وتنوّعت في سرعة. واكتسبت ميزات كثيرة، كالميزات التي تؤمن لها الحماية من صيّادي الفرائس، كما اكتسبت أجهزتها الداخلية وتنظيم عمل هذه الأجهزة. ويُعتقد أن هذا التطور الذي لحق بالكائنات الحية ناتج عن توافر عدة عناصر ملائمة، منها انفصال القارة البدائية للأرض قبل ٢٤٥ مليون سنة، الذي أدّى إلى تضاعف الأماكن الإيكولوجية المناسبة لنموّ الحياة، وترافق ذلك مع زيادة

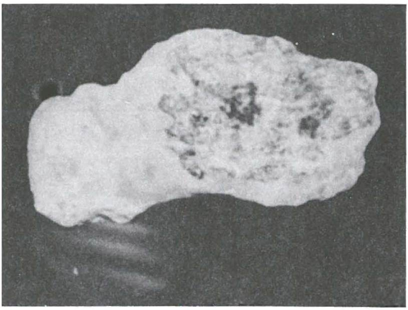
إشباع الهواء بالأوكسيجين.

أمّا أولى الفقريات فظهرت قبل ٥٠٠ مليون سنة، وسبقت بذلك ظهور النباتات البرية البدائية بخمسين مليون سنة، والتي تحوّل عدد منها أشجاراً حقيقية قبل ٣٧٠ مليون سنة. وبعد ثلاثين مليون سنة انضمّت الحيوانات اللافقرية والقشريات إلى الكائنات الحية على سطح الأرض، وتلى هذه الفئة من الكائنات الحية فئة البرمائيات والزواحف والطيور والثدييّات التي أكّدت التأقلم التام في حياة الفقريات على سطح الكرة الأرضية.

وقبل ٢٩٠ مليون سنة غزت الزواحف البحرية والبرية العالم، إلى أن انقرضت قبل ٥٦ مليون سنة وأتت الثدييّات التي انبثق منها الإنسان.

العنبر اللبناني

أمّا في لبنان فعثر على عيّنات من العنبر اللبناني قدّمها الدكتور رئيف ملكي إلى مؤسسة المحفوظات الوطنية. وهذا العنبر يُعد ثروة علمية نادرة، لأنه يحوي حشرات ونباتات منقرضة. والعنبر اللبناني هو أقدم وأغنى عنبر اكتُشف في العالم، ويعود إلى حقبة جيولوجية تسمى الحقبة الطبشورية أو الكريتاسية الباكرة (السفلى) ويرجع عمرها إلى ما بين ١٢٠ و١٣٦ مليون سنة.



عيّنة من العنبر اللبناني

النباتُ في لبنان: الأشجار

يتمتع لبنان، هذه البقعة الصغيرة من الأرض، بمناخ معتدل وأمطار غزيرة وأنهار وتربة خصبة وشمس دافئة، وهذه كلّها عوامل ممتازة لنموّ نبت جيّد

ومزروعات ذات جودة عالية.

وتنمو في تربة لبنان مع بداية الربيع أنواع عديدة من النباتات والأزهار البرية، تُقدر بحوالي ٣٥٠٠ نوع. وفيها أزهار رائعة الألوان تفوح منها الروائح الزكية. فهناك الزعتر والهندباء البرية والشّومر والقصعين، ومن الورود نذكر شقائق النعمان الحمراء التي تشبه زهرة التوليب Tulipe التي تكثر زراعتها في شمال أوروبا والبلدان الاسكندنافية، الأقحوان، والـ Margueritte البريّة...

وورد في سفر نشيد الأناشيد من كتاب التوراة، وصف وافر لجمال لبنان وتنوع نباته ورائحة زهوره.

وهناك محميّات طبيعية كحرج إهدن فيه أنواع نادرة من الأشجارة والنباتات والطيور، وهناك أيضاً محمية جزيرة الأرانب التي تقع مقابل شاطىء طرابلس.

ونباتات لبنان تتميز بألوانها ونمُوها ورائحتها الذكيّة. كلّ هذا بفضل المناخ الجيد والملائم.

وتكثر النباتات العطرية، كالزعتر والتبغ وقصب السكر، وهذه تنمو نموّاً جيّداً في التربة اللبنانية.

وتتنوع الأشجار في لبنان بتنوع المناخات والارتفاع عن سطح البحر. ومن هذا المنطلق يمكن تصنيف ثلاث نواحٍ شجرية:

١ ـ المنطقة الجردية: وهي المنطقة التي ترتفع عن سطح البحر ١٥٠٠ متر وما فوق. وتنمو فيها أشجار مثل الأرز والجوز والسنديان.

٢ ـ المنطقة الساحلية: وهي المنطقة الساحليّة امتداداً إلى سفوح جبال لبنان الغربية. وتمتاز بالصنوبر والنخيل والحمضيات.

٣ ـ المنطقة الوسطى: وتمتد في سلسلة جبال لبنان الشرقية لناحية الشرق، وتمتاز بمناخها الجاف والحار. وتنمو فيها أشجار النخيل في شكل خاص.

الأشجار المثمرة: بدأ الإنسان القديم الذي وُجد في لبنان بزرع الأشجار

المثمرة لقوته وقوت أولاده. ومن أهمّ الأشجار المثمرة الأصيلة في لبنان: التين والكرمة والزيتون. وهاتان الأخيرتان شجرتان مقدّستان لدى المسيحيين. فمن الخمر دم المسيح وبستان الزيتون كان مكاناً لصلاة المسيح قبل أن يسلّمه يهوذا إلى الصلب. التين والكرمة والزيتون أشجار تنمو عادة على الساحل وحتى ارتفاعات غير عالية كثيراً، وهي لا تحتاج إلى كثير من العناية والريّ، حتى يمكن تشبيهها بالأشجار البرية، فهي تتحمّل الجفاف طويلاً وتتأقلم مع الحرارة، وخصوصاً التين.

وللكرمة التي تعطي ثمرة العنب منافع كثيرة، ومنها يستخرج العرق والنبيذ والزبيب، وقد بدأت زراعتها في منطقتنا ثم نقلها البحارة الفينيقيون إلى اليونان، ومن هناك انتشرت في أوروبا.

أما الزيتون، فهو شجرة مقدّسة تعمّر مئات السنين، ومنها يستخرج الزيت، زيت الزيتون الصحيّ، والذي اعترف العلم الحديث بفوائده، وأكّد أنه لا يسبّب تزايد نسبة الكولستيرول السيّىء في الدم، بل هو على العكس يسهم في تخفيض هذه النسبة عبر زيادة نسبة الكولستيرول الجيّد. ويدخل الزيت في معظم الأطباق اللبنانية النباتية، وهو أساسي في المطبخ اللبناني. ويقول المثل اللبناني «إن الزيت هو عماد البيت». هذا الزيت الذي كان يستخدم قديماً للإنارة بواسطة السراج. أمّا نواة الزيتون فتستخدم مادة للوقود والتدفئة.

والزيتون شجرة مقدسة، وزيتها يستعمله الكاهن لدهن جبين المؤمنين كعلامة بركة وتقديس، وكذلك يدهن به الإنسان المشرف على الموت.

والزيتون كالكرمة، شجرة قديمة جداً في لبنان، ورد ذكرها قبل ١٥٠٠ سنة قبل المسيح في كتابات رأس شمرا على الساحل السوري، وحمامة نوح حملت في منقارها غصن زيتون، ومعروف بستان الزيتون الذي صلّى فيه المسيح قبل موته. وقد نقل الفينيقيون هذه الشجرة من الشرق إلى الغرب. وزراعتها منتشرة جداً في بلدان حوض البحر المتوسط، حيث يلائمها الدفء والشمس الساطعة التي تساعد في إنضاج حباتها.

وتنتشر زراعة الزيتون على الساحل، وخصوصاً في منطقة الكورة حيث هناك

غابة كبيرة، لا تضاهيها إلا غابة أكبر في سهل الشويفات جنوب بيروت.

أمّا حديثاً فقد دخلت إلى لبنان زراعة أشجار التوت، التي شكّلت لفترة من الزمن، خصوصاً أثناء الحرب العالمية الثانية، مورد رزق أساسياً لسكان الجبال. إذ كانت شجرة التوت مرتعاً لتربية دود القزّ الذي تستخرج منه خيوط الحرير. وكان هذا الحرير يباع للأثرياء بأغلى الأسعار.

وبعد الحرب العالمية الثانية، تراجعت زراعة التوت على حساب أشجار الفاكهة كالتفاح والإجاص. وهاتان الشجرتان تعيشان على ارتفاعات تقارب الألف متر. وقد شكل التفاح أيضاً مورداً مهماً لمزارعي لبنان لجودته وحلاوته، إذ كانوا يصدِّرون كميات كبيرة منه إلى الدول العربية.

شجرة النخيل: في لبنان عدد لا بأس به من أشجار النخيل، وهو ينمو عادة في المناخ الحار. ويلائمه الساحل اللبناني كبيروت وسلسلة جبال لبنان الشرقية.

وكان النخيل رمزاً مقدساً عند الفينيقيين.

الأشجار الحرجية

كان لبنان منذ أقدم العصور جبالاً من الغابات المتنوعة. وقد أمعنت يدُ الإنسان في قطعها عبر الأجيال، حتّى لم يتبق منها اليوم سوى النذر اليسير. وهذه جريمة لا تُغتفر، لأنَّ قطع الأشجار هو عامل من عوامل تغيير طبيعة لبنان وطابعه المميّز.

وجريمة قطع أشجار لبنان، ولا سيما أشجار الأرز، قديمة جداً. فقد بنى الملك سليمان الهيكل من خشب الأرز، وجذبت هذه الأشجار أيضاً الفراعنة قبل أكثر من أربعة آلاف سنة، فلبنان كان مميّزاً بأشجاره القويَّة الباسقة، وهذا ما لم يكن متوافراً في الممالك الأخرى المحيطة، والتي كانت في الغالب تمدّ سلطانها على لبنان وتحتلّه وتعمد إلى قطع أشجاره.

وتكرّرت المأساة في العصر الحديث، أثناء الحرب العالمية الأولى، عندما قطع العثمانيون الأشجار لاستخدامها كوقود للقطارات. وكذلك فعل الإنكليز

والفرنسيون في الحرب العالمية الثانية. ويُقدَّر أن ستين في المئة من غابات لبنان قُطعت في تلك الفترة.

وفي العصر الحديث كان لزراعة التوت أثر سلبي كبير على الأشجار الحرجية كالسنديان والسرو وما سوى ذلك. إذ قام الفلاّح اللبناني بقطعها لزرع أشجار التوت مكانها، والتي شكّلت مورداً اقتصادياً للبنان أثناء الحرب العالمية الأخيرة. فكانت قوتاً لدودة القز التي تنتج خيوط الحرير. وبلغ حجم صادرات الحرير أربعة ملايين فرنك في السنة.

أما أهم الأشجار الحرجية في لبنان فهي الصنوبر (بنوعيه البريّ والجويّ المثمر) والسنديان. وهاتان شجرتان دائمتا الاخضرار في الصيف والشتاء. وهناك أيضاً أشجار الملول والصفصاف والحور والشوح الذي اشتُهر خشبه كثيراً في العصور القديمة. وهذه الأشجار تفضّل الجبال المرتفعة، ما عدا الصنوبر، الذي يعيش أيضاً على مستوى البحر، والشاهد على ذلك حرج بيوت الشهير، حرج الصنوبر.

ومن الأشجار الحرجية أيضاً السرو والشربين اللذان كانا منتشرين بكثافة في أجزاء من الجبل اللبناني.

وهناك أيضاً شجر القيقب أو الأزدرخت. وزراعته كانت أيضاً منتشرة جداً بسبب قوة خشبه ونموّه السريع نسبياً. وازدهرت أيضاً زراعة شجر الجميز واللّبنى وهو شجر عطر الرائحة له صمغ رائحته كالبخور. وكان يُعتقد أن اسم لبنان مشتق من شجرة اللبنى.

شجرة الأرز: تعتبر شجرة الأرز من أكبر الأشجار وأجلّها وأهمّها على الصعيد الوطني. فهي رمز لبنان، وقد رُسمت على العلم اللبناني والهوية اللبنانية.

شجرة الأرز قديمة جداً في لبنان، وتعود إلى آلاف السنين، تتميز بجلالها وارتفاعها وتفرّع أعضائها، إضافة إلى نوعية خشبها وعبيره الذكيّ.

وفي لبنان أنواع من الأرز، أهمّها وأشهرها والأكثر قدماً هو أرز الربّ أو أرز

لبنان حسب التسمية العلمية.

أمعنت يد الإنسان منذ القدم في قطع شجر الأرز لجودة خشبه. فقد بنى الملك سليمان هيكله من خشب الأرز، وبنى منه الفراعنة قصورهم، كما صنع الفينيقيون من هذا الخشب المراكب الكثيرة.

وورد ذكر أرز الربّ مرات عدة في كتاب التوراة، وورد مدح كثير لجودته وفوائده وصلابته وارتفاعه ومقاومته للتسوّس. فشجرة الأرز تقاوم التسوّس، بسبب الصمغ والرائحة اللذين يميزانها، وأيضاً لأنها تعيش في الجبال المرتفعة (حوالي ١٥٠٠ متر) وتحمي نفسها بالثلج الذي يقتل عادة الجراثيم والأوبئة. وهذه الشجرة تظلّ خضراء طوال العام.

وعُثر في الحفريات التي أجريت في آثار مدينة نينوى على جسر من خشب الأرز، يعود عمره إلى ٢٥٠٠ سنة. وتبيّن بعد إحراقه أن رائحة ذكية ما زالت تفوح منه.

ويروي الفرعون المصري سنفرو حوالي ٢٦٥٠ ق.م. أنه قام برحلة بحرية إلى لبنان، وأنه عاد إلى بلاده ومعه أربعون مركباً محملاً بجذوع أشجار الأرز، ويروي أنه بنى مركباً له من هذا الخشب.

وعثر في الغرفة التي دفن فيها الفرعون سنفرو على جذوع من الأرز تحمل السقف، ولا تزال في حالة جيدة، فيما عُثر أيضاً على زورق للفرعون خوفو مصنوع من خشب الأرز كان معدّاً لطقوس الموت، ولحمل نفس الفرعون في رحلته إلى الأبدية. وتبيّن أن هذا الزورق الذي كان مدفوناً في طبقة كلسية ما زال في حالة جيدة وأن خشبه ما زال يحتفظ برائحته الذكية.

أما اليوم، ففي لبنان بعض أنواع الأرز في غابة الباروك وإهدن وعين زحلتا. لكن هذه الأشجار ليست قديمة العهد جداً، وليست من نوع أرز الرب، بل هي علمياً نوع من أنواع العرعر، أما ما تبقّى من أرز الرب، فغابة صغيرة فوق بشري مشرفة على وادي قاديشا. وتضم هذه الغابة قرابة ٤٥٠ شجرة، بينها بضع شجرات

قديمة جداً، تعود إلى حوالي ألف سنة.

وهذه الغابة مهدّدة حالياً بالزوال بسبب انقطاعها عن محيطها الطبيعي، بعدما تقلّصت إلى هذا الحجم، ومهدّدة بالقطع وبعض الأمراض وعدم الصيانة. وفي عهد رستم باشا المتصرّف على لبنان، أمر ببناء سور حول الغابة لحمايتها، وأسهمت الملكة البريطانيّة فيكتوريا في بعض نفقات بناء هذا السور، وتمّ تعيين حراس للغابة لحمايتها ممّن يريدون قطع أغصانها ومن قطعان الماعز.

السنديان: السنديان من الأشجار الحرجية المهمة في لبنان، فهناك أحراج واسعة من هذه الأشجار الجميلة والكثيفة والتي تبقى كالأرز خضراء على مدار السنة، ومنها عدة أنواع:

- السنديان السوري: وهو نوع ينمو في وادي قنوبين في شمال لبنان وفي زحلة واليمونة في البقاع.

- السنديان اللبناني: وهو نوع ينمو ويطول، حتى يبلغ أحياناً أكثر من ١٠ أمتار. جذعه عريض وعليه قشور متجعدة قاتمة اللون.

- السنديان الأرزي: وهو نوع من السنديان، قريب جداً من فصيلة الأرز، ويشبهه كثيراً، يتميّز بأغصانه الطويلة القليلة الورق.

الحيوانات البرية

مع أن الحيوانات البرية تقلّصت اليوم إلى الذئب والضبع والخنزير، فإن غابات لبنان القديمة كانت مرتعاً لحيوانات مفترسة كالأسود والنمور. وجاء ذكر لذلك في كتاب التوراة وتحديداً في نشيد الأناشيد: «خدور الأسود وجبال النمور».

وكانت هذه الحيوانات تعيش في لبنان بسبب كثافة غاباته، وقلة سكّانه قياساً إلى يومنا الحاضر. ولكن ومع تقدم السكن وتراجع الغابات، فإن هذه الحيوانات انقرضت أو تراجعت إلى أماكن أكثر ملاءمة خارج حدود هذه المنطقة.

ويذكر بعض المؤرخين أن النمس كان أيضاً حيواناً معروفاً في هذه المنطقة،

إضافة إلى الدب السوريّ، والذئب والضبع والأرانب، وهناك أيضاً ثعالب وبنات آوى بأعداد كثيرة في الغابات اللبنانية، وحتى القريبة من البيوت.

أمّا الطيور البرية، فهناك أنواع كثيرة منها: البوم، الغربان، بعض الصقور والنسور والعقبان. وتأتي إلى لبنان رفوف من الطيور الموسمية وتبقى فيه أثناء انتقالها من منطقة إلى منطقة هرباً من البرد أو من الحرّ. وهذه الطيور هي البجع والهدهد والورور والسّمن والسنونو والشحرور.

الفصل الرابع

ظهور الإنسان وتوطُّنه في المنطقة

تعود أول آثار إنسانية مكتشفة في العالم إلى أكثر من أربعة ملايين سنة، عرف الإنسان خلالها تطورات فيزيولوجية كثيرة حتى وصل إلى تكوينه الحالي.

ويُعتقد أن الإنسان وُجد أولاً في الصحراء الأثيوبية، وتطور عبر آلاف السنين، بحيث قلّ الشعر الذي كان يكسو أنحاء جسمه. واستقام جسده حتى سار على قدمين، بدلاً من أربعة.

إنسان الـAustralopithèque:

وفي مقال نشرته مجلة «Science et vie» أن أقدم إنسان من أسلافنا هو الإنسان المدعو Australopithèque، وهو أول إنسان معروف يسير على قدمين، إذ أن الإنسان قبل ذلك كان يدبّ على أربعة أقدام، ويشبه القرد أكثر ممّا يشبه الإنسان.

ويعود أقدم نموذج للإنسان السائر على قدمين إلى ٤,٤ ملايين سنة، ويعرف باسم Australopithecus ramidus وقد عُثر على بقايا له، وهي عبارة عن ضرس، في أثيوبيا، كما عثر على هيكل عظمي كامل لفتاة في العشرين من عمرها، أُطلق عليها اسم لوسي، يعود إلى ٣,٥ ملايين سنة.

وعلى رغم شعره الكثيف وشكل فكّه المختلف، فإن هذا الإنسان يملك ملامح كثيرة تقرّبه من شكل الإنسان الحالي. فقد كان مستقيم الجسم يسير على قدمين. وكان طول يديه يساوي طول يدي الإنسان المعاصر، أمّا قدماه فكانتا أقصر، وساعداه أكثر قوة.

وأثبتت الدراسات التشريحية لأعضاء هذا الإنسان أنه كان قريباً جداً من الإنسان الحالي، مع بعض الاختلافات البسيطة، منها أنه كان مهيّأ لتسلّق الأشجار أكثر مما كان مهيّأ للسير، وتبيّن أيضاً أن تركيبة أسنانه وأضراسه كانت قريبة من تركيبة الإنسان المعاصر، بحيث أخذت هذه الأسنان والأضراس تصغر وتبتعد عن

شكل أضراس القرود، وتتطوّر صوب الإنسان آكل اللحوم والنباتات أيضاً. أمّا شكل الفكّ فتطوّر بدوره، وكان في مرحلة وسط بين فكّ القرد وفكّ الإنسان المعاصر.

أمّا جمجمة هذا الإنسان فكانت صغيرة ولا يتجاوز حجم دماغه الـ ٥٠٠ سم٣، فيما يبلغ متوسط حجم الدماغ لدى الإنسان المعاصر ١٤٥٠سم٣ . ولم يكن هذا الإنسان قادراً على صنع أدواته، إلاّ أنه بلا شك كان قادراً على استخدام الأدوات التي تقدمها إليه الطبيعة من عظام وحجارة وقضبان، تماماً كما يفعل حيوان الشمبانزيه.

إنسان الـ Homohabilis: تعود الآثار المكتشفة لهذا الإنسان إلى حوالي ١,٢ مليون سنة. ويعتقد أنه عاش في كينيا وتنزاينا وأفريقيا الجنوبية قبل ثلاثة ملايين سنة.

ويتميّز هذا الإنسان بأنه أقل بدائية من الإنسان الذي سبقه، وأنه يمتلك فكّين أقلّ بروزاً، في حين أن حجم دماغه بلغ ٧٠٠سم٣ وسطياً. وهذا التطور جعل هذا الإنسان قادراً على صنع أدوات مصقولة من الحجر، إضافة إلى أدوات مصنوعة من العظام والعاج.

ويعتقد العالم أندره لانغانيه، مدير مختبر علم المتحجرات في المتحف الوطني الفرنسي أن إنسان الـ homohabilis، كان أول إنسان قادر على الكلام.

إنسان الـ Homo rectus: تحدَّر هذا الإنسان مباشرة من إنسان الـ homo habilis. وقد عاش أيضاً في أفريقيا الشرقية قبل ١,٦ مليون سنة.

ويتميّز هذا الإنسان بجسم أضخم قليلاً من جسم الإنسان المعاصر، وأكثر صلابة منه. جبهته منخفضة وله حاجبان كثيفان، فيما يحمل فكّه أنياباً كبيرة. وهذا الإنسان يعتبر أكثر ذكاء من الإنسان الذي سبقه، إذ يبلغ حجم دماغه ٨٠٠سم٣ . وهو قادر على تحسين صناعة الأدوات وعلى تنظيم مسكنه. ويعتقد أن جماعات من هذا الإنسان تمكنت من استخدام النار.

وانتقل هذا الإنسان، من موطنه الأساسي أفريقيا قبل مليون سنة إلى أوروبا وآسيا في اتجاه الشرق الأوسط، حيث تطوّر دماغه وبلغ حجمه ١٢٠٠سم^{3}، وبالتالي نمت قُدراته الذهنية.

وعاش هذا الإنسان في أندونيسيا، حيث وُجدت بقايا عائدة له في جزيرة جافا، وأيضاً في الصين، وفي مناطق مختلفة من الهند.

أما في أوروبا، فعثر على آثار لهذا الإنسان في ألمانيا تعود إلى ٦٥٠ ألف سنة، وتميّزت البقايا الموجودة بأنها تدلّ إلى هيكل ضخم وقويّ شبيه في تركيبته بالإنسان المعاصر، وعُثر أيضاً على بقايا لإنسان الـ homo rectus في جبال البيرينه، هي عبارة عن جمجمة تعود إلى ٤٥٠ ألف سنة. وعُثر أيضاً على جمجمة إنسان في اليونن نعود إلى ٣٥٠ ألف سنة.

إنسان الـ Homo Sapiens: خلف إنسان الـ Homo rectus إنسانٌ أكثر تطوّراً، أطلق عليه اسم Homo sapiens، ومنه تفرّعت فئات متنوعة، هي Homo sapiens sapiens, homo- sapiens néanderthalensis. تختلف هذه الفئات في ما بينها خصوصاً في شكل الجمجمة وحجمها.

وتختلف الآراء حول كيفية تحوّل إنسان homo-rectus إلى إنسان Homo sapiens قبل حوالي ٢٠٠ ألف عام.

ويعتقد بعضهم أن هذا التحوّل حصل في أفريقيا الجنوبية. ولاحقاً، خلال هجرة هذا الإنسان إلى الشرق الأوسط تفرّع Homosapiens قبل ١٠٠ ألف عام إلى فرعين: الـ Homo sapiens sapiens الذي انتشر في كل أنحاء الكرة الأرضية وhomo sapiens néanderthalensis الذي اختفى في آسيا قبل ٣٥ ألف سنة، بعدما عاش قبل ذلك في أوروبا.

ووفقاً لهذه النظرية فإن الإنسان الحالي يعود إلى Homo sapiens المنحدر بدوره من Homo-rectus.

أما النظريات الأخرى فتعتبر أن إنسان homo sapiens كان إنساناً خلاّقاً أجاد

صنع أدواته وبدأ أن يكون فناناً، بسبب تطوّر قدراته الذهنية التي نمت مع تطور خبراته المتراكمة.

إنسان النيندرتال (Néandertal): إنسان النيندرتال هو أقدم نموذج إنساني معروف حتى الآن، في الطريق الطويل للبحث عن الجذور الأولى للبشرية.

في العام ١٨٥٦، عُثر قرب مدينة دوسلدورف الألمانية، في مكان يدعى نيندرتال (Néanderthal) على العظام العليا من جمجمة بشرية مع عظام ناتئة في الجبهة، إضافة إلى عظام من الورك.

وكان يُظنّ أن هذه العظام نظراً لمواصفاتها تعود إلى دبّ يعيش في الكهوف. وسلّم الأشخاص الذين عثروا على هذه العظام المكتشفات إلى أستاذ القرية الذي كان يهتّم بتاريخ الإنسان، ولاحظ هذا الهاوي أن هذه العظام لها مزايا إنسانية، وكان هذا الأمر مفاجئاً ومثيراً في الوقت عينه. والمثير هو اكتشافه أن إنساناً مختلفاً عن الإنسان المعاصر عاش في عصور تاريخية موغلة في القدم.

وكان الأمر في حاجة إلى مرور قرن كامل من الاكتشافات والتقدّم في أساليب البحث والتغيير في العقليات، كي يصنّف الإنسان النيندرتال من عائلة البشر، فقد اعتبر أولاً كأنه فصيلة حيوانية أو مخلوق بدائي إلى أن صُنّف في فئة (Homo sapiens néandertalensis).

وفي العام ١٩٧٩، اكتشف في حفريات أجريت في منطقة Saint-Césaire في فرنسا بقايا هياكل عظيمة ترجع إلى العصر الحجري الأول، هذا العصر الذي عُرف فيه إنسان Homo sapiens sapiens، وهو يُعتبر من أسلاف الإنسان الحديث. وطُرح السؤال مجدداً عن علاقة إنسان النيندرتال بالإنسان المعاصر. وتبيّن أن إنسان النيندرتال قد أجاد صنع الأدوات الحجرية التي تشبه كثيراً الأدوات التي كان يصنعها الإنسان الحجري الذي تتحدّر منه البشرية اليوم. فقد صنع إنسان النيندرتال سكاكين حجرية ذات حدّ قاطع، كما صنع الحجارة ذات الوجهين الحادين.

وسادت اعتقادات مختلفة، منها أن إنسان النيندرتال تبنّى هذه التقنيات عبر العثور صدفة على أدوات حجرية أو عبر تبادل حصل بين هذين الإنسانين، أو أنه حصل على هذه الأدوات كغنيمة حرب.

ولكن الغريب في كل ذلك أن الأدوات الحجرية التي يعود صنعها إلى إنسان النيندرتال والتي عُثر عليها في مغارة Saint- césaire تعود إلى ما قبل ٣٦٠٠٠ عام فقط. ومعلوم أن الإنسان المعروف حالياً والذي وُجدت آثار له في الشرق الأدنى منذ ١٠٠ ألف عام، لم يعش في أوروبا إلاّ منذ ٤٠ ألف سنة فقط.

وحتى زمن قريب كان علماء التاريخ يعتقدون أن إنسان النيندرتال قد اختفى سريعاً، فيما استمرّ في العيش الإنسان الحديث. ولكن تبيّن، على عكس ذلك، أن تعايش إنسان النيندرتال والإنسان الحديث في أوروبا قد دام طويلاً، ما يقرب من ١٠ آلاف عام.

وظهرت في حفريات تعود إلى العصر الحجري المتوسط، ويصل تاريخها إلى ما قبل ٢٩٠٠٠ سنة، أُجريت في البرتغال وإسبانيا، بقايا من إنسان النيندرتال تعود إلى ما قبل ٣٣٤٠٠ عام.

ويعتقد بعض العلماء المتخصصين بمرحلة ما قبل التاريخ أن إنسان النيندرتال قد انقرض بفعل حروب طاحنة خاضها ضده الإنسان الحديث، سببها الصراع على الأرض ومنابع الماء ومصادر القوت.

وطُرحت أيضاً احتمالات أخرى، منها أن يكون إنسان النيندرتال قد انقرض بسبب ضعف مناعته إزاء أمراض أدخلها الإنسان الحديث، أو بسبب عدم قدرته على التأقلم مع الظروف المناخية التي سادت في بداية العصر الحجري الحديث من انتشار الجليد والبرد وبروز حيوانات مثل الرنّة والماموث.

ولكن دراسات أُجريت على بقايا إنسان النيندرتال، أظهرت أن هذا الإنسان كان قادراً على التأقلم مع البرودة الشديدة.

إلاّ أن بعض العلماء لا يعتقدون بكلّ هذه النظريات ويعيدون اختفاء إنسان

النيندرتال إلى نظرية التطور، التي تعتبر أن ما حصل لم يكن اختفاء فصيلة بشرية على حساب فصيلة أخرى، إنما تحوّلاً تدريجياً للشعوب.

وتقول هذه النظرية، التي يدعمها في شكل خاص العالم الأميركي فريد سميث أن إنسان النيندرتال الذي كان يعيش في أوروبا فقد تدريجاً صفاته البيولوجية، بسبب اندماجه واختلاطه بالإنسان الحديث الذي أتى من الشرق الأوسط منذ ما قبل ٥٠ ألف عام تقريباً، والذي كان يحمل جينات مختلفة.

وقد ظهرت آثار هذا التزاوج في مدينة ڤينديجا من كرواتيا؛ فإن إنسان النيندرتال الذي عُثرت على بقاياه هناك كان ذا ذقن أكثر بروزاً وسحنة أقل ضخامة من إنسان النيندرتال المعروف أو «الكلاسيكي».

في أي حال، يرى بعض الباحثين تطوّراً مستمرّاً في صفات كلّ من إنسان النيندرتال والإنسان في الأجيال التي أتت بعده، ولكن هذه الاختلافات قد تكون مجرد اختلافات جغرافية وليست عرقية، تماماً كما يختلف اليوم الإنسان الأوروبي عن إنسان العرق الأصفر مثلاً أو الأسود.

في المقابل، ودحضاً لهذه النظرية، أظهرت دراسات أُجريت على متحجرات لإنسان النيندرتال أن لا دلائل أبداً على حصول تزاوج بين هذا الإنسان والإنسان الحديث، وطرح بعضهم نظرية جديدة مفادها أن إنسان النيندرتال اتخذ من شبه جزيرة إيبيريا ملجأ له هرباً من إنسان Gro-magnor أو الإنسان الحديث، وبقي منعزلاً هناك، ممّا أمّن له استمرارية لوقت أطول، ونتيجة لهربه هذا لم يحصل أي تزاوج بين الإنسانين المذكورين اللذين ظلاّ فصيلتين مختلفتين: Béandortal و Homo sapiens.

وأظهرت التحاليل التي أُجريت على بقايا حوالي ٤٠٠ إنسان، أن مزايا إنسان النيندرتال قد ظهرت تدريجاً خلال مئات آلاف السنين لدى الإنسان القديم في أوروبا والشرق الأوسط. وقد عاش إنسان النيندرتال «الكلاسيكي» ما بين ١٠٠ ألف عام و٣٠ ألف عام قبل عصرنا الحالي.

وفي حفريات أُجريت أخيراً في إسبانيا، تمّ العثور على بقايا هياكل بشرية تعود إلى ٨٠٠ ألف عام، ممّا جعل هذا الاكتشاف يؤكد أن الإنسان وُجد في أوروبا قبل ٣٠٠ ألف سنة ممّا كان يُظنّ.

ويشبه إنسان النيندرتال أكثر ما يشبه الإنسان الذي سبقه وليس الإنسان الذي أتى بعده. فإن وجهه طويل وعريض مع جبهة نافرة وأنف كبير. وكان قوي البنية، ذا عضلات مفتولة، وإذا كان يختلف عن الإنسان المعاصر بعظامه كافة تقريباً، فإن تركيب هيكله العظمي وحجم جمجمته هما اللذان يقربانه من الإنسان الحديث.

وقد تمتّع إنسان النيندرتال بيدين ورجلين قصيرة ولكن قوية، وبجسم قصير وقوي وبقفص صدري واسع، ربّما لمواجهة التغييرات المناخية، مثل الانتقال الحاد من العصر الجليدي إلى العصر الدافىء.

كل هذه الصفات جعلت العلماء يصنفون هذا الإنسان أولاً في فصيلة الحيوان، لكنه حيوان يشبه الإنسان كثيراً. فهو يسير على قدمين وليس على أربعة، وهو قادر على الكلام وعلى صناعة أدواته، وهو ينظم حياته ويتدفأ قرب النار، ويدفن موتاه. . .

ظروف عيشة النيندرتال: كان إنسان النيندرتال يعيش في مجموعات ضيقة متلاحمة تنتقل غالباً من مكان إلى آخر، وكان يعيش في مغاور صخرية أو في خيم صنعها من جلود الحيوانات وثبّتها بقواعد من الخشب أو العظم.

ويبدو أن ظروف حياة هذا الإنسان كانت قاسية، إذ كان يموت شاباً، قبل الوصول إلى سن الأربعين. وتحمل عظام هذا الإنسان آثار أمراض وجروح كثيرة. إذ إنه يعتقد أن هذا الإنسان لم يكن يمتلك سلاحاً يستعمل عن بعد لمواجهة الحيوانات، بل كان يصطاد في معارك وجهاً لوجه مع الحيوان، ممّا خلّف لديه جروحاً كثيراً، وممّا جعله يعيش في جماعات متماسكة.

ويعتقد بعض العلماء الذين أجروا دراسات حديثة أن إنسان النيندرتال كان ماهراً في صناعة أدواته، على عكس ما كان يُظنّ، وهو يشبه في ذلك كثيراً الإنسان

الحديث. فهو قادر على صنع الأدوات الحجرية المختلفة الاستعمالات في سرعة كافية، على رغم الاختلاف في شكل اليد بين الإنسان الحديث وإنسان النيندرتال، وكذلك فإن لديه مهارات واسعة، ممّا يؤكد وجود ذكاء معيّن لديه.

وفي العام ١٩٥٣ عُثر على مقابر لإنسان النيندرتال في مغارة شانيدار في العراق، وأظهرت التحاليل أن هذه الأجساد كانت مغطّاة بالورود. وهذا الأمر يدلّ على احترام الأموات وإقامة مدافن لهم.

هذه الظاهرة تتناقض تماماً مع ما عُثر عليه في مغارة ڤينديجا في كرواتيا، حيث ظهرت على العظام آثار جروح ولكمات وقضمات، توحي بأن هذه الجثث قد تعرّضت للالتهام من قبل إنسان آخر. فهل كان إنسان النيندرتال من أكلة لحوم البشر، أم أن ظروف جوع قاسية مرّ بها أجبرته على ذلك؟

ورغم كل هذه النظريات التي سبق أن أوردناها، ما يزال إنسان النيندرتال غامضاً حتى الآن. فإن بقايا الهياكل العظميّة العائدة له والتي تـمّ اكتشافها هي قليلة، وأغلبها غير مكتمل. والدراسات على هذه البقايا لم تكتمل بعد. كذلك فإن التحاليل الوراثية والجينية لا تزال في بداياتها في هذا المجال.

إذاً، يعتقد علماء المتحجرات أن ظهور الإنسان يعود إلى عشرين مليون أو خمسةٍ وعشرين مليون سنة. أمّا ظهور الإنسان العاقل فحديث نسبياً. ويحدّد علماء التشريح عمر البشرية استناداً إلى تطور الدماغ وأشكال الأعضاء. لكن وضع تحديد دقيق لتاريخ وجود الإنسان العاقل يبقى صعب المنال، لأن الانتقال من الإنسان الذي يدب على أربعة أقدام إلى الإنسان العاقل حصل في شكل تدريجي، وبالتالي لا يمكن فصل المراحل الانتقالية بتواريخ محدّدة.

وبدأ الإنسان يكون إنساناً عاقلاً عندما استعمل عقله بصنع أدوات متطورة نسبياً، وعندما أصبح حيواناً اجتماعياً يفضّل العيش في شكل جماعي لحماية نفسه من الأخطار. ويُعتقد أن الإنسان أصبح حيواناً اجتماعياً قبل أن يكتشف اللغة، لأن التواصل كان يتم بإشارات غير الكلام واللغة، تماماً كما تتواصل الحيوانات في ما بينها.

وترافق تطوّر دماغ الإنسان مع تطوّر في شكل جسمه وفي وظائف أعضائه، وتحوّلت اليدان من أن تكونا أداة للمشي، إلى أداة للعمل فاستقام الإنسان وسار على قدمين. ويؤكد العلماء أن تطوّر الدماغ ترافق دائماً مع تطور في وظيفة اليدين، وأنه كانت هناك دائماً علاقة وثيقة بين الدماغ المفكّر واليدين المنفذتين.

ونتيجة لتطوّر الإنسان عبر آلاف السنين أو بسبب انقراض بعض الأنواع البشرية كإنسان النيندرتال (استناداً إلى بعض النظريات)، فإنه لم يبقَ ويتمكّن من الاستمرار سوى الإنسان العاقل Homo Sapiens. ويقدَّر أن إنسان النيندرتال، الذي كان حسب بعض النظريات أيضاً يتمتّع بمقدار كافٍ من الوعي والتفكير، استمرَّ على سطح الكرة الأرضية إلى ما قبل ٤٠ ألف سنة من الآن، أو أنه عايش الإنسان العاقل لسنوات قبل أن يزول من الوجود. وتقول احتمالات أخرى أن تزاوجاً تمّ بين إنسان النيندرتال والإنسان العاقل. كما أن إنسان بكّين الذي سبق وتحدّثنا عنه والذي يرجع إلى ما قبل نصف مليون سنة تقريباً يعتبر بدوره نوعاً مختلفاً. لكنه كان يعرف استعمال النار، مما يعني أنه كان أيضاً عاقلاً في شكل من الأشكال.

وظهر الإنسان العاقل للمرة الأولى في شرق أفريقيا المدارية، حيث ظهر أيضاً أمثاله من أنواع أخرى من الإنسان، إذا جاز هذا التصنيف، ومنها انتقل إلى أنحاء العالم.

وتقول بعض النظريات أن الإنسان العاقل الذي استوطن أميركا قبل اكتشافها من قبل كريستوف كولومبوس وصل إلى القارة الأميركية برّاً من الجهة الشمالية الشرقية لآسية وعبر برزخاً كان يصل القارتين، قبل ارتفاع مستوى البحر، وتكوُّن مضيق بيرنغ.

ووصل الإنسان في العصر الحجري الأول على قدميه إلى تشيلي الحالية في أقصى جنوب القارة الأميركية، كما وصل إلى أوستراليا حوالي ٦٠٠٠ سنة ق.م. عبر طريق بري تخللتها المياه التي تربط آسية بأوستراليا. وتمكّن الإنسان أيضاً من الوصول إلى بولينزيا، وهو انتشر انتشاراً واسعاً في أنحاء الكرة الأرضية باستثناء

القطبين. وتمكّن من التأقلم في شكل جيد مع التغيرات المناخية، وتحمّل الحرّ والبرد، على رغم أن جلده لم يعد مكسوّاً بالشعر، كما سائر الحيوانات.

وانتقل الإنسان في العصر الحجري القديم من شمال شرق آسيا إلى شمال غرب أميركا الشمالية. ومن هناك انتقل إلى جنوب أميركا. ونشأت في هذه القارات حضارات جديدة ومجتمعات مختلفة. ومع مرّ الزمن فُقد فصل الاتصال بين سكّان القارتين آسيا وأميركا.

ويُعتقد أن انتقال الإنسان من آسيا إلى أميركا حصل قبل ٢٠ ألف سنة، سبقت انتقاله الحديث من أوروبا مع كريستوف كولومبوس.

ظهور الإنسان في الشرق الأوسط

سيطر على الكرة الأرضية قبل ظهور الإنسان عليها عصر جليدي مديد، تلته فترة دافئة، فعصر جليدي ثانٍ، بلغ قمّته قبل حوالي المليون سنة، ويُعتقد أن الإنسان ظهر في أعقاب انتهاء العصر الجليدي في أوروبا، وكذلك في لبنان والشرق الأدنى.

وتدلّ الأبحاث والآثار المكتشفة إلى أن الإنسان في شكله الحالي استوطن هذه المنطقة منذ وجد على سطح الكرة الأرضية. وتؤكد ذلك الأدوات الحجرية التي تعود إلى العصر الحجري القديم، والتي عُثر عليها في أماكن متفرقة من الأراضي اللبنانية.

ومعلوم أن الأرض السورية كانت مغطاة بالمياه، وأنها ارتفعت في العصر الجيولوجي الثالث، حيث نشأ الشقّ السوري العظيم المعروف بالبحر الميت.

أما في العصر الجيولوجي الرابع، أي منذ حوالي المليون سنة، فقد تكوّنت الجزر والنتوءات المقابلة للشاطىء اللبناني في صور وصيدا وطرابلس.

ثم أتى عصر الأمطار، فعصر الجفاف الذي أدّى إلى قلّة المراعي. وهذا المناخ تسبّب في هجرة إنسان العصر الحجري الأوّل إلى سواحل البحر الأبيض

المتوسط، وظهرت آثار تدل على هذا الإنسان في مغاور عدلون وقرب صور في مغاور حناوية وفي انطلياس.

وأظهرت الآثار المكتشفة والدراسات أن الإنسان الأول عاش على الشواطىء اللبنانية، منذ العصر الحجري الأول. وعثر على بقايا هذا الإنسان في مغاور انطلياس، وعلى أغراض تدلّ على أن الإنسان القديم كان يعيش في الكهوف الموجودة في صخور الساحل اللبناني.

وما جعل الإنسان الأول يستوطن هذه البقعة ميزات كثيرة، منها المناخ الملائم، ووجود موارد الماء والخضرة، والقرب من البحر، والجبال العالية التي كانت تؤمن الحماية وأيضاً تحفظ المناخ الجيد، من حيث معدل الأمطار ودرجات الحرارة، وهذه الجبال العالية الخضراء تحوي تنوعاً نباتياً وحيوانياً ملائماً لحياة الإنسان.

ومنذ أقدم العصور كانت هذه المنطقة محطّاً للقبائل الراحلة أو الهاربة، لأنها تشكّل ملجأ حصيناً بفضل طبيعة جبالها وصخورها.

وأسهم مناخ هذه المنطقة الجيد بفضل اعتداله وشمسه في قدوم الإنسان إليها، ففي هذه التربة وهذا المناخ تنمو جيداً الحبوب الصالحة للتأنيس كالقمح والحنطة. كذلك تُدجّن الحيوانات كالغنم والماعز والبقر، والتي يتغذى الإنسان من حليبها ولحمها... ومن أحجارها يمكنه صناعة الأدوات اللازمة لحياته وصيده...

الفصل الخامس

العصور الحجرية

العصور الحجرية هي أقدم العصور التي عُرف فيها وجود الإنسان، وتسمّى بالحجرية لأن الإنسان آنذاك كان يستعمل الأدوات الحجرية. ويقسم هذا العصر إلى ثلاثة عصور:

١ ـ العصر الحجري الأول: ويمتد حتى ما قبل ٢٠٠ ألف سنة.

٢ ـ العصر الحجري المتوسط: بدأ حوالي ١٢٠٠٠ ق.م. ودام ٦ آلاف سنة.

٣ ـ العصر الحجري الحديث: بدأ حوالى ٦٠٠٠ ق.م. ودام ٢٠٠٠ سنة.

العصر الحجري الأول

ويستدلّ على هذا العصر وعلى طريقة عيش الإنسان فيه من خلال الأدوات الحجرية التي تمّ العثور عليها، والتي تمّ تأطيرها في تواريخ قديمة جداً نسبة إلى أشكال هذه الأدوات ومدى صقلها.

وعُثر على العديد من هذه الأدوات البدائية في مناطق الساحل والجبل اللبناني، وأيضاً في المنطقة الممتدة من نهر الأردن في الجنوب إلى منطقة رأس شمرا في سوريا اليوم. وهذا يدلّ على أن الإنسان الحجري الأوّل عاش في هذه المنطقة.

ووجدت هذه الأدوات تحديداً في العقيبة على الشاطىء اللبناني بين بيروت وجبيل وفي قريتي كفريا ومدوخا الواقعتين في منطقة البقاع.

وتتميز أدوات العصر الحجري الأول بأنها بدائية جداً قليلة الصقل. وقد صنعت هذه الأدوات عادة من حجر الصوان الصلب، وكانت تُسنّن عند أحد أطرافها لتصبح مثلثة الشكل تقريباً، وتشذّب تشذيباً خفيفاً، وأحياناً تُرقّق من زاويتين وتتّخذ هذه الأحجار أحجاماً مختلفة، وتستعمل استعمالات متنوعة. فإن

رأسها الحاد يصلح لقطع الأغصان والأشجار وكلّ ما هو في حاجة إلى القطع. كما تستخدم هذه الأحجار في سحق الحبوب أو اللحوم أو العظام. كما تصلح أيضاً لكشط الجلود، جلود الحيوانات، وما سوى ذلك من استعمالات.

وفي مغاور انطلياس ومغاور منبع نهر الكلب عثر على أدوات حجرية تعود إلى الحقبة الأخيرة من العصر الحجري الأول.

وكانت مغاور نهر الكلب المتعدّدة مسكناً للإنسان الأول الذي كان يشبه إنسان النيندرتال. ويستدلّ عليه من بقايا الحيوانات التي عُثر عليها في المغاور، ومنها أسنان وعظام متحجرة لخنزير بري وجاموس وماعز وغزال ودبّ وكركدن، إضافة إلى حيوانات أخرى منقرضة. كما عُثر على بزاق متحجّر.

وبدأ الإنسان الحجري الأول في نهاية العصر الحجري القديم يتطوّر رويداً رويداً في طريقة حياته وفي صنع أدواته. فأخذت الأحجار تصبح أكثر تشذيباً وصقلاً، كما أنها أصبحت أصغر حجماً. ومع نهاية هذا العصر وبداية العصر الحجري المتوسط، بدأ الإنسان بصنع مقبض للحجارة، وهو عبارة عن عظمة طويلة في معظم الأحيان، تساعده أكثر على قطع الأشجار وما شابه.

وبدأ الإنسان، عبر تطوّره في صنع أدواته الحجرية، يبدو كمخلوق عاقل مفكّر، يختلف بدماغه اختلافاً جذرياً عن باقي الحيوانات. فصناعة هذه الأدوات كانت بهدف، هو تحقيق الوصول السهل إلى قوته في غالب الأحيان.

وكان الإنسان الحجري القديم يعيش في الكهوف والمغاور الطبيعية المنحوتة في الصخر. وكان يعيش على شكل جماعات صغيرة متنقلة، تركض وراء الماء والغذاء، تماماً كما تعيش الحيونات، وكان يحتمي في الكهوف من الحيوانات المفترسة ومن البرد، خصوصاً أن العصور التي عاش فيها الإنسان القديم كانت عصور أمطار غزيرة.

وأسهمت هذه الأمطار في كثافة الغابات في تلك العصور، وكذلك النباتات البرية التي كان الإنسان يقتات بها، إضافة إلى لحوم الحيوانات التي كان يصطادها،

والتي كان يأكلها نيئة، قبل اكتشافه للنار.

وعُثر في الحفريات التي أُجريت في جبل الكرمل، حيث وجدت آثار للإنسان القديم، على فحم محترق، ممّا يدل على أن الإنسان القديم عرف النار مصادفة، واستعمل فوائدها مراراً. ومن الطبيعي أن تكون النار قد اشتعلت في الهشيم بفعل احتكاك أو صاعقة، وأدرك الإنسان فوائد النار لطهي طعامه ولإعطائه الدفء، وأيضاً لإخافة الحيوانات وإبعادها عنه.

ولكن من المؤكد أن إنسان العصر الحجري الأول لم يكتشف طريقة إشعال النار بنفسه عن طريق حكِّ قطعتين صلبتين أو حجري صوّان. وهذا الاكتشاف لم يحصل إلاّ بعد سنين طويلة.

وتميّز العصر الحجري القديم المبكر ليس فقط بتقنية قشر الأدوات الحجرية وتشحيفها، إنما بثلاثة اكتشافات مهمة جداً. : تدجين الكلب، والرمي بالقوس وتصوير الحيوانات والأحياء البشرية وصياغة نماذج لها.

ويتبين من ذلك أن الإنسان بدأ باكراً باستغلال قدراته العقلية والفكرية المتطوّرة. فكيّف الأشياء والحيوانات لخدمته، وانصرف إلى الفنون. وعُثر في أماكن عدة من أوروبا، خصوصاً في فرنسا وإسبانيا، على صور على الجدران تعتبر بدايات الفنون التي كانت في البداية تهدف إلى تصوير القوى الخارقة والحيوانات المعتبرة مقدّسة، وكانت هناك أماكن مخصصة لطقوس دينية معيّنة.

إنسان انطلياس: في الأعوام ١٩٣٦ و١٩٣٧ و١٩٣٨ قام اليسوعيون والأميركيون من جامعة بوسطن بالتنقيب في مغاور انطلياس، حيث عاش الإنسان الأول، وركزوا حفرياتهم في مغارة كسار عقيل ووصلوا إلى عمق عشرين متراً، حيث دهشوا لما اكتشفوا: هيكل عظمي بشري وجد في قلب صخر عند أسفل طبقة الحضارة الأورينية السفلى، وهي الحضارة التي تلي الحضارة اللافلوزية ـ الموسترية العليا، التي تميّزت فيها الأدوات الحجرية ـ الرقائق.

والهيكل العظمي يعود إلى طفل عمره ثماني سنوات، عاش قبل ٢٥ ألف

سنة إلى ٣٠ ألف سنة، وهو أقدم هيكل عظمي بشري عُثر عليه في لبنان.

وعُثر في هذه المغارة أيضاً على بقايا حيوانات كالكركدن وجثة دبّ عمره أكثر من ٢٠ ألف سنة والغزال والضبع والثعلب والبقرة والماعز. وعُثر على أصداف حلزونية مختلطة بعظام أخرى، وكأنها سُحقت لاستخراج النخاع منها، واسم هذه الحلزونيات Hélix، بينها نوعان بحريان، هما Trochus وPatella.

وفي العام ١٩٣٩ وقعت الحرب العالمية الثانية، فعاد المنقبون إلى بلادهم بعدما صَبّوا الباطون على الهيكل العظمي وطمروه حفاظاً عليه، وأطلقوا على صاحب الهيكل اسم «الولد إكبرت».

وإضافة إلى هذه الهياكل العظيمة عُثر على أدوات حجرية كان يستخدمها إنسان انطلياس في عمليات الصيد. وهذه الأدوات مصنوعة من أحجار الصوان، ويعود بعضها إلى الحضارة الأورينية القديمة، أو إلى عصور أقدم، أي إلى الحضارة اللافلوزية ـ الموسترية، أي إلى العصر الممتد من ٧٠ إلى ٤٠ ألف سنة قبل المسيح، إلى عصر الحجر المرقوق والصوان المشغول.

وما بين العامين ١٩٦٥ و١٩٧٠ اكتشف فريق تنقيب فرنسي من متحف الإنسان في باريس أدوات حجرية في كسار عقيل، ونقلت إلى فرنسا لدرسها.

وهناك دلالات كثيرة على أن مغاور أنطلياس كانت مأهولة من الإنسان الحجري الأول منذ ما قبل سبعين ألف سنة. وعندما انتشر الإنسان انطلاقاً من أفريقيا قبل مئتي ألف عام، وصل إلى الشرق الأوسط، حيث سكن مغاورها ومنها مغاور أنطلياس. وقد اختار هذه المنطقة بسبب وفرة مياهها، إذ إن فيها سبعة ينابيع. ومعلوم ما للمياه من أهمية للإنسان وللحيوان أيضاً الذي كان يؤم مصادر الماء فيقوم الإنسان باصطياده، في زمن سبق اكتشاف الزراعة وتدجين الماشية، وحيث كان مصدر القوت الرئيسي يعتمد على الصيد.

وإضافة إلى مغارة كسار عقيل حيث عُثر على هيكل للإنسان الأول، توجد في أنطلياس مغاور أخرى كانت مسكناً لإنسان العصر الحجري، وهذه المغاور

هي: مغارة البلاّنة، مغارة الرهبان، المغارة الناشفة، المغارة الشتوية ومغارة ورع.

أمّا مغارة البلاّنة، أو مغارة الوطاويط كما تدعى، فهي مغارة كبيرة لم تعد موجودة الآن بعدما دمّرتها الكسّارات، يبلغ طولها حوالي سبعين متراً وعرضها يتراوح ما بين ثلاثين وأربعين متراً وعلوّها يبلغ عشرين متراً. وهي من أكبر مغاور أنطلياس، ويعود تاريخها إلى ما قبل سبعين سنة، تماماً كمغارة كسار عقيل.

وعُثر في مغارة البلاّنة على أحجار مدقوقة وعظام. وقام فريق من مكتشفي المغاور اللبنانية ومن بينها spelio club du Liban بمحاولة لدرس متحجرّات الحيوانات والحشرات. واكتشف هذا الفريق أيضاً في أعلى المغارة أنقاض معبدين، وآثار كتابات فينيقية، وكان أحد المعابد للإله اليان أو الياس ابن بعل وهو إله الربيع والينابيع، والثاني للإلهة أناط، إلهة الجمال والأمومة، وهي أيضاً ابنة بعل. ومن هنا أخذت انطلياس اسمها على اسم هذين الإلهين، كما يُعتقد.

إلاّ أنَّ يد الإنسان وتجاهل الدولة ارتكبا جريمة كبيرة في حق الإنسانية والتاريخ، وأنشئت في الخمسينات في مهد الإنسان الأول كسّارات دمّرت مغارة البلاّنة وردمت كسار عقيل، إلى أن صدر قرار حكومي في التسعينات أوقف عمل الكسّارات، ولكن بعد فوات الأوان.

العصران الحجريان المتوسط والحديث

في هذا العصر تطوّر الإنسان في صنع أدواته الحجرية تطوّراً بارزاً، فأخذ يشذّبها في شكل أفضل من ذي قبل. وعُثر على العديد من الأدوات الحجرية التي تعود إلى ذلك التاريخ، ومنها الأدوات الحجرية المعروفة بالرقاق، وهي قطعة حجرية رقيقة أو مرقّقة يدوياً مأخوذة من الصخور.

وعُثر على أدوات تعود إلى أواخر العصر الحجري المتوسط في منطقة عدلون الواقعة بين مدينتي صيدا وصور وفي مغاور أنطلياس ونهر الكلب ونهر إبراهيم.

ويشكّل العصر الحجري المتوسط مرحلة انتقالية بين العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث. وفي هذا العصر سجّل الإنسان تطوراً فكرياً مهماً، ظهر

من خلال تطويره للأدوات التي يستعملها في حياته اليومية، وسبق هذا الإنسان في تطوّره شبيهه الذي كان يعيش في أوروبا. والسبب في ذلك أن المناخ الدافىء نسبياً الذي كان يسيطر على هذه المنطقة ساعد الإنسان على العيش وعلى تطوّر دماغه وتفكيره في سرعة أكبر من الإنسان الذي كان يعيش في المناطق الباردة.

وعُثر في كهوف انطلياس وفي طرابلس على أدوات حجرية تعود إلى العصر الحجري، وهذه الأدوات تعرف بالشفرة الحجرية، لأن أشكالها تشبه الشفرة، من حيث أنها مسنّنة من الجانبين. وكان الإنسان يستعملها في قطع الأشجار، وفي الحفر داخل العظام وما سوى ذلك.

هذه الأدوات شبيهة جداً بالأدوات التي عُثر عليها في حفريات «النطوف» وهي منطقة قريبة من القدس. وتيمّناً باسم هذه المنطقة أُطلق اسم «الحضارة النطوفية» على الحقبة الأخيرة من العصر الحجري المتوسط.

أمّا الإنسان الذي عاش في ذلك العصر، فإن شكله الجسدي تغيَّر عن إنسان العصر القديم. فقد أصبح أقصر قامة وأكثر نحافة، ذا رأس مستطيل، يشبه كثيراً الإنسان البرونزي الذي عاش في مدينة جبيل، وهي أقدم مدينة منظّمة في التاريخ.

أمّا الحيوانات التي كانت تعيش في ذلك الحين، فيستدلّ من الحفريات إلى أنها الغزال الذي كان موجوداً بكثرة على ما يبدو، والوعل الذي كان وجوده نادراً، إضافة إلى الضبع المرّقط، ونوع من القنفذ مختلف عن النوع الموجود الآن في لبنان.

وطرأت على المناخ في تلك الحقبة تغييرات جمّة. فقد كان مناخاً دافئاً، قلّ فيه المطر، لا بل يُظنّ أن فترة جفاف مرّت على المنطقة في ذلك العصر.

وعُثر في لبنان في الحفريات التي أُجريت قرب البترون وطرابلس على أدوات وبقايا حيوانات تعود إلى إنسان العصر الحجري الحديث. ومن هذه البقايا عظام للوعل والغزال والذئب.

وبدأ إنسان هذا العصر بصقل أدواته، وبصنع مقابض خشبيّة لها، وأصبح

يولي عناية أكبر بمصنوعاته، فيصقلها صقلاً جيّداً ويلمعها، وأحياناً يحفر عليها رسوماً فنية.

وتعلّم الإنسان في هذه الفترة أن يخيط ملابس له من جلود الحيوانات وصوفها، وقد صنع إبراً ودبابيس من العظم.

الصيد

قبل اكتشاف الزراعة ثم تدجين الحيوانات، كان الصيد أوّل مهنة اتخذها الإنسان القديم لتأمين قوته، هذه المهنة التي أجبرته على الترحال خلف القطعان والطيور وبحثاً عن الأشجار المثمرة والنباتات المغذية.

وواجه الإنسان القديم صعاباً كثيرة أثناء عملية الصيد، التي كان يواجه فيها الحيوانات وجهاً لوجه. لكن هذا الإنسان طوَّر آلات للصيد، كما طوَّر خططاً لإيقاع الفريسة في الفخ، من دون أن تلحق به إصابات جمّة.

كانت الأولوية في الصيد هي لأنواع الطيور المختلفة، ثم الحيوانات الصغيرة، لأن الخطر في صيدها أقل. أمّا الحيوانات المفترسة، فكان الإنسان يضطرّ أحياناً إلى مواجهتها، عندما لا تتأمن له مصادر القوت الأخرى.

وتدفع الرغبة في تأمين القوت للقبيلة أطول فترة ممكنة الإنسان القديم إلى مواجهة الخطر والتصدّي للحيوانات المفترسة كحيوان الماموث مثلاً، الذي عُثر على آثار كثيرة له في المغاور حيث كان الإنسان الأوّل يسكن.

وكان الإنسان القديم يتبع خططاً في صيد هذا النوع من الحيوانات، فإنه كان ينصب الأفخاخ مثلاً، كأن يحفر حفرة عميقة في الأرض ويغطيها بالأغصان، فيقع فيها الحيوان، ويسهل بالتالي قتلهُ.

والصيد هو عملية جماعية في الغالب، إذ يتقاسم الصيادون المهام ضمن خطط مرسومة سابقاً لمحاصرة الطريدة وإبعادها عن القطيع بقصد استفرادها، ويعمدون أحياناً إلى الإنقضاض على الفريسة من على صخرة عالية، أو قد يحاصرونها في طريق مسدود بالصخور.

وكان الإنسان يحاول الإفادة من كلّ ما يمكن الإفادة منه من الفريسة، فهو يأكل لحمها ويسلخ جلدها وصوفها للكساء، وقد يستعمل قرونها لصنع أدواته، كما هو الأمر مع حيوان الماموث ذي القرون العاجية، كما يستفيد من العظام أيضاً لصنع الأدوات التي تلزمه للقطع والكشط وما إلى ذلك.

وإذا كان الحيوان كبيراً كان يُسلخ في مكان اصطياده، أمّا إذا كان ذا حجم صغير، فإنه يُنقل إلى الكهف أو مكان السكن.

أسلحة الصيد

طوَّر الإنسان القديم تدريجاً عبر العصور أسلحة صيده، من الحجارة، إلى الحجارة المصقولة فالحراب والسهام وصولاً إلى القوس.

واستعمل هذا الإنسان خصوصاً الأسلحة التي ترمى عن بُعد، حفاظاً على حياته وتأميناً لإصابة أكثر دقّة. ومن هذه الأسلحة السهام ذات الرؤوس الخشبية أو الحجرية المسنّنة، والحراب ذات الرؤوس المثلثة والمؤلفة من العظام أو العاج، وغالباً ما كانت تعلّق في رؤوس الحراب قرون الحيوانات.

ويعتقد أن الإنسان الأول توصل أيضاً إلى اختراع نوع من الأدوات التي تساعد في دفع السهم صوب الهدف، وهذا ما كان مقدمة لاختراع القوس الذي يعود تاريخه إلى عشرة آلاف سنة قبل المسيح فقط.

كما صنع الإنسان السكاكين والشفرات من الحجارة، وتمكّن من تطويرها وتسنين حدّها لتصبح قاطعة أكثر.

الصيد البحري

يُعتقد أن عملية الصيد البحري كانت نشطة منذ عصور ما قبل التاريخ، خصوصاً بالنسبة إلى الإنسان الذي عاش في الكهوف الساحلية على طول الشاطىء اللبناني، والذي عُثر على بقايا هياكل كثيرة له.

وكان الصيد البحري يتركّز على الأصفاد التي يعثر عليها على الشاطىء،

وعلى بعض الحيوانات البحرية الأخرى وأهمها الأسماك. وكان الصيد يتمّ بالأيدي، إذ لم تكن هناك بعد صنارة وشباك، حتى ٨٠٠٠ عام ق.م.

وكان الصيد عمادُ الغذاء في الفترة الجليدية، إذ إن النباتات لم تكن قادرة على النموّ في الحرارة المنخفضة.

ويعتقد أن الإنسان القديم كان يعرف طرقاً عدة لطهي الطعام. ويستدلّ على ذلك من الحجارة المكوّمة على أشكال المواقد التي عُثر عليها، والتي تنبىء بأن الإنسان كانت لديه وصفات عدة للطعام غير الشيّ والسلق.

ويتخيل بعضهم في سيناريو لإحدى الوجبات أن الإنسان كان يعمد أولاً إلى إشعال النار بصبر بواسطة أحجار الصوّان، ثم يستعمل وعاء صُنع من جلود الحيوانات، حيث يفرغ فيه الماء حتى يغلي مع مراقبة لاستمرار اتّقاد النار بإضافة أغصان وأعشاب يابسة. وبعد الغليان تسلق أصناف من الخضار مع معطّرات نباتية ولحوم، ويصنع حساء ساخن مع عظام الحيوانات... وهكذا فإن حساء الخضار هو وجبة من العصر الحجري، إذا صحّ تصوّر هذا السيناريو للمطبخ الحجري.

تدجين الحيوانات

كان الإنسان في العصر الحجري الأول أو القديم يقتات بالنباتات البرية التي تنمو في الأحراج وبثمار بعض الأشجار البرية. كما كان يقتات بلحوم الحيوانات التي يصطادها. لذا كان مكان سكنه مرتبطاً بمكان وجود هذه القطعان وبموارد المياه. فكان كثير التنقل لا يستقر في مكان، ويبيت ليلاً في المغاور التي يعثر عليها.

أمّا في العصر الحجري المتوسط، فقد بدأ الإنسان بتدجين بعض الحيوانات الأليفة للإفادة من لحمها ولبنها ومن الحماية التي تؤمنها له ضدّ الحيوانات المفترسة.

وأول الحيوانات التي دجّنها الإنسان كان الكلب. ويستدلّ على ذلك من جمجمة كلب عُثر عليها في الحفريات التي جرت في جبل الكرمل. وكان الكلب

رفيق الإنسان في صيده، وحامياً له من الحيوانات الكاسرة.

وبعد تدجين الكلب، عمد الإنسان إلى تدجين المواشي، كالماعز والأغنام، وهذه الحيوانات يستفيد الإنسان من حليبها وصوفها ومن لحومها.

وجعل تدجين الماشية الإنسان يتخلّى قليلاً عن حاجته إلى الصيد وملاحقة فريسته وبالتالي التنقل المستمر. فخفّ ترحاله، إلاّ في سبيل الماء والكلأ له ولماشيته. وهكذا بدأت الحياة المستقرّة التي ستترسّخ لاحقاً بعد اكتشاف الإنسان للزراعة وانتقاله إلى طور الحياة المستقرة قرب مزروعاته وفي انتظار نموّها وجني غلالها.

مسكن إنسان العصرين: الحجري المتوسط والحديث

أوّل مسكن للإنسان كان المغاور والكهوف الطبيعية المنحوتة في الصخر، يلجأ إليها للاحتماء من غدر الطقس وهجومات الحيوانات المفترسة. وهذا المسكن الطبيعي كان أوّل مستقرّ لتجمّع الأفراد والعائلات، حيث كان الإنسان يعيش في شكل جماعي في المغاور. ومن هنا نشأت نواة العائلة ثم المجتمع القبلي.

ولكن هذا المسكن لم يرضِ الإنسان طويلاً، فبدأ ببناء مساكن أخرى كالخيم التي تصنع من جلود الحيوانات. ويُعتقد أن الإنسان بدأ بالتخلي عن الكهوف منذ العصر الحجري المتوسط، لأن الكهوف لم تكن متوفرة في كلّ مكان، ولم تكن تتسع للجميع في النهاية.

وبنى الإنسان الأكواخ والخيم المختلفة الأشكال والأحجام، وكانت أساساتها دعائم من الخشب والعظام تُغطَى بجلود الحيوانات، وتُشدّ بالحجارة التي تُثبتها جيداً إلى الأرض. وقد شيّدت هذه الأكواخ والخيم عادة في حمى الصخور أو قرب مصادر المياه والسهول الخضراء، حيث وفرة الصيد والقوت، وكان مكان المسكن يتبدّل وفق تبدّل الفصول.

وكان الإنسان يستفيد كثيراً من المساحة خارج كوخه، لإعداد الطعام وصنع الأدوات، حيث وضع مقاعد له من الحجارة أو ما شابه، وكان العمل جماعياً في

غالب الأحيان، والفسحة الخارجية مكاناً مشتركاً للقاء وتنظيم خطط التنقل والصيد. . .

وكان الفناء الخارجي للمسكن محدّداً في المساحة بواسطة حجارة أو قضبان من الخشب، وكأن في ذلك رغبة كامنة في التملّك واقتسام المساحات التي توطّدت في العصر الحالي.

أما أرض المسكن فكانت تُرصف في غالب الأحيان بالحجارة التي تستخدم كأرضية لإشعال النار والطهي. وكان المسكن يُقِسَّم حسب المهام، فجانب منه يخصّص للطهي، فيما يخصّص جانب آخر للعمل وصنع الأدوات الحجرية. وجانب ثالث للقاء أفراد العائلة وتبادل الأفكار والتخطيط للغد.

ويُعتقد أيضاً أن خيماً أخرى كانت أرضها تغطى بجلود الحيوانات خُصّصت للراحة والنوم.

وهذا يُظهر أن تقسيم المسكن إلى مساحات متخصّصة، الذي بدأ مع إنسان العصر الحجري هو حاجة إنسانية، تطوّرت مع الزمن ومع بدء الهندسة المعمارية التي قسّمت المنازل إلى غرف، لكلّ منها استعمالُها الخاص، كالمطبخ وغرفة الاستقبال وغرف النوم. . .

وفي تلك العصور لم يكن الفصلُ دقيقاً في المسكن بين العائلات، إذ كانت هذه العائلات تعيش في شكل جماعات من ثلاثين أو مئة شخص يتقاسمون عدة خيم أو أكواخ مختلفة، كل منها مخصّص لحاجة معينة. فأحياناً كانت الخيم تشاد داخل الكهف وأخرى خارجه، وتستعمل هذه أو تلك حسب تقلّبات الطقس، فيما تخصص مساكن للعمل وأخرى للطهي وأخرى للنوم، كما سبق وأوردنا.

الحياة الاجتماعية

تبعاً لكلّ ما تقدّم حول نظام المسكن الجماعي والخيم المخصّصة للراحة والاجتماع، تبدو بوادر حياة اجتماعية بدائية، وتنظيم اجتماعي - بيتي فإن البيوت كانت منظّمة وكانت تُنظّف وتُرتّب في شكل دوري، واستُدلّ إلى ذلك من آثار كوم

من العظام والحجارة مصّنفة كل نوع على حدة عُثر عليها في أوروبا.

ولكن أسئلة كثيرة ما زالت تحيِّر العلماء، وهم لم يجدوا حتّى الآن أجوبة شافية عنها: ما هي العلاقات الاجتماعية التي كانت تربط في ما بين العائلات المختلفة؟ كيف تتلاقى هذه العائلات مع مجموعات وقبائل أخرى؟ كم من الوقت كانت تستمر الإقامة في المكان عينه؟».

والأمر الوحيد المؤكد أن تقاسم لحوم الفرائس كان يحصل بين العائلات، ويُعتقد أن الإقامة في الكهوف كانت تدوم فترة من الزمن تتخلّلها رحلات مؤقتة.

الزراعة

منذ أن عرف الإنسان الأوّل الاستقرار في أرض ثابتة، والتي غالباً ما تكون قرب منابع المياه، بدأ بزراعة الأرض وحراثتها لقوته وقوت أطفاله.

وأوّل المزروعات هي الحبوب. وقد زرع الإنسان الأول القمح والشعير، بعدما كانت هاتان النبتتان تنموان في الحقول كالأعشاب البرية. ثم دخلت لاحقاً زراعة حبوب الذرة. وهذه الأنواع الثلاثة من الحبوب تمدّ الإنسان بقيمة غذائية عالية وجيدة، وهي أساس الخبز الذي صُنع لاحقاً، بعد طحنه وعجنه بالماء وخبزه.

وزرع الإنسان القديم أيضاً العدس وبعض الأنواع من البقول كالفاصولياء والحمّص.

وفي ما خصَّ الخضار، عُرفت منذ القدم زراعة الثوم والبصل والخيار، وكان الثوم والبصل يستخدمان لدواعٍ صحية كدواء لبعض الأمراض لقدرتها على مكافحة الجراثيم.

بعد ذلك، زرع الإنسان الذرة، ثمّ الأشجار المثمرة التي زرعت في مراحل لاحقة، لأن نموّها يحتاج إلى وقت طويل. ومن هذه الأشجار الكرمة والتين والزيتون. وكما ذكرنا فإن هذه الأشجار قديمة جداً في لبنان وتعود إلى العصور التي بدأ فيها الإنسان يتعرّف إلى الزرع.

أمّا كيف اكتشف الإنسان الزراعة؟ فمن المؤكد أن ذلك حدث عن طريق الصدفة، فقد لاحظ أن الحبوب بعد حصادها يتساقط منها على الأرض، فتنمو مرّة أخرى في الموسم الثاني. وبعد سنوات من هذه المشاهدات توصّل الإنسان إلى جمع بعض هذه الحبوب، وذرّها بنفسه في التراب، ثم انتظار نموّها.

وقبل الزراعة كان الإنسان يقتات من الحبوب البرية كالقمح والذرة.

وحوالي ٨٠٠٠ سنة ق.م. بدأ العصر الجليدي بالزوال واعتدل المناخ، ممّا سمح للنباتات والحبوب بالنموّ والتنوّع. فنمت أشجار الكستناء والجوز التي تحمل ثماراً غنية بالوحدات الحرارية والزيوت، ونمت في السهول فصيلة النجيليات والنباتات العطرية وفصيلة الشوكيات والطحالب والحزاز.

وأمكن تحليل حبوب اللقاح التي عُثر عليها في داخل الصدف مثلاً، ممّا أعطى فكرة واسعة عن النباتات التي كانت تنمو في تلك المنطقة آنذاك. ومن هذه النباتات الهندباء، الشمّر، الجزر والملفوف البرّي وثمار العرعر.

وتغذّى الإنسان الأول بكل هذه المأكولات النباتية إلى جانب اللحوم، وكان يتغذى أيضاً بالعسل الذي ينتجه النحل في القفير الطبيعي.

وهكذا كان طور الزراعة الذي أدخل الإنسان في مرحلة الاستقرار، لأن بذر الحبوب يحتاج إلى وقت لجني الثمار. وهذا ما كان يضطرّ المزارع إلى البقاء أشهراً في مكان واحد قرب مزروعاته... وهكذا بدأت الحياة المستقرّة.

ويُعتقد أن الإنسان طوّر أدوات لحصاد الزرع. وعُثر في حفريات جبل الكرمل على أداة حجرية تشبه المخل لها مقبض من خشب.

وتطوّرت الزراعة خصوصاً في العصر الحجري الحديث، وكذلك تطوّرت الأدوات المستعملة للزرع والحصاد، وأقبل الإنسان أكثر على هذا النوع من الأطعمة. واستعمل أنواعاً من العصي لحفر التراب ولنزع الجذور. ويعتقد أن الإنسان كان يستخدم الأغصان في صنع السلال وأشياء أخرى.

ومع اكتشاف الزراعة، بدأت نباتات جديدة تنمو. نباتات مدجّنة أتت لتحلّ

محلّ النباتات البرية. ومع مرّ الأيام انقرضت بعض النباتات البرية وظهرت نباتات ذات صفات جديدة زرعها الإنسان وحصدها، واحتفظ ببذارها للموسم المقبل، كما عرف كيف يخزّن الحبوب من موسم إلى آخر.

وتبدو أشجار الزيتون والتين والكرمة والخوخ والتفاح وسواها، وكذلك الماشية كالأبقار والماعز والخراف، وكأنها أصيلة في منطقة الشرق الأوسط، ممّا يوحي بأنها دُجّنت في هذه المنطقة. أمّا أشجار الأرز والموز والحمضيات والحيوانات، كالجمال، فإنها دُجِّنت خارج المنطقة، في حين دُجّنت شجرة النخيل في مصر وبلاد ما بين النهرين، حيث الحرّ والرطوبة ملائمان لنموّ هذا النوع من الأشجار.

ويُعتقد أن تدجين الحيوانات حصل في أماكن مختلفة من العالم في الوقت عينه، من دون أي تواصل بين هذه الأماكن، وكذلك الزراعة. ففي حين تمّ تدجين أنواع معينة من النباتات والحيوانات في جنوب غرب آسيا، قام سكّان القارّة الأميركيّة بتدجين أنواع أخرى من الحيوانات كاللاما والألبكا والنحل والخنزير الهندي. ولم يحصل أي اتصال أو تبادل للحيوانات المدجّنة بين آسيا وأميركا إلاّ في القرن السادس عشر للميلاد.

أما الزراعة وتربية الماشية فقد بدأتا، على ما يُعتقد في منطقة جنوب غرب آسيا، وتحديداً في الجزيرة الفراتيّة وسوريا ولبنان وفلسطين، وفي جزء من تركيا الجنوبية وغرب إيران وتركمنستان. إذ إن هذه المنطقة كانت ملائمة من حيث المناخ ووفرة المياه لنموّ الزرع وتربية الحيوانات.

أما الجزيرة العربية فكانت في زمن اكتشاف الزراعة صحراء قاحلة غير ملائمة للزرع وتدجين الحيوانات. أما مجرى نهر الفرات الأدنى، فقد كان في ذلك الزمن أيضاً كناية عن مستنقعات غير صالحة بدورها لهاتين المهمتين.

وانتقلت النباتات المدجَّنة من منطقة جنوب غرب آسيا بواسطة مستعمرين، وانتشرت في أماكن أخرى من الأرض.

وتمّ استقرار الإنسان في هذه المنطقة بفضل الزراعة في حوالي الألف السابع أو أوائل الألف السادس ق.م. واستوطن تحديداً في المناطق الغنية بالمياه قرب الينابيع والواحات وفي السهول الخصبة. وفي معظم الأحيان كانت المزروعات تُسقى تلقائياً في السهول الفيضانية والواحات المغذّاة من الينابيع التي تحمل معها الطمي الغني بالمواد العضوية التي تخصّب التربة. وفي حالات أخرى حيث مياه الطمي غير متوافرة، كان الزرع ينتظر مياه الأمطار.

وتعلّم الإنسان القديم من خبرته في الزراعة أن التربة تُستنفد بعد مواسم زرع متكرّرة، وأن من الضروري تغذيتها بالمواد العضوية التي يحملها الطمي. واعتمد الإنسان سياسة الانتقال إلى أراضٍ جديدة خصبة، بعد استنفاد طاقة التربة التي زرع فيها في المواسم السابقة.

وتمكّن الإنسان لاحقاً بعد عشرات السنوات من تحوّله إلى مزارع من اكتشاف طرق اصطناعية لتسميد الأرض، بدلاً من انتظار المياه الحاملة معها الطمي. واعتمد للتسميد أسلوب قطع الأشجار وحرقها، بحيث يصبح الرماد بمثابة سماد اصطناعي يغذّي الأرض، ويسمح باستغلال التربة لعدة مواسم متتالية من دون الاضطرار إلى الانتقال إلى أرض جديدة. كما عمد الإنسان إلى استعمال روث الماشية في تسميد التربة. وهاتان الطريقتان تسمح له بالزراعة البعلية.

وأدّى اكتشاف التسميد إلى تثبيت استقرار الإنسان في أرضه أكثر من ذي قبل، لأنه لم يعد في حاجة إلى الانتقال من الأرض التي استنفدْ غذاؤها إلى أرض خصبة جديدة، بعدما بدأ يخصب الأرض بنفسه اصطناعياً.

بدايات الحضارة

أسهم اكتشاف الحياة الزراعية في تثبيت استقرار إنسان العصر الحجري الحديث في أرض واحدة أطول مدة ممكنة فتخلّى عن ترحاله، واستقرّ. وارتاح إلى تأمين قوته من الحيوانات التي دجّنها ومن مزروعاته، ولم يعد قلقاً على تأمين القوت، ولم يعد مجبراً على التنقّل للصيد.

هذا الاستقرار الجسدي، بدأ ينعكس استقراراً نفسياً، وبالتالي فكرياً. وسمح للإنسان بالتفكير والابتكار وبداية الإبداع. ومعروف أن الإبداع لا يظهر إلاّ مع الاستقرار، وهذا الأمر يحكم أيضاً حياة الإنسان المعاصر. فالإنسان القلق وغير المستقرّ لا يمكنه أن يبدع، لأن الفكر في حاجة إلى أن يتفرّغ من مصاعب الحياة اليومية، ليترع في مجالات أخرى كالفنّ والاختراع.

وبدأ الإنسان يتكاثر ويزداد عدد الناس وتزيد تجمّعاتهم السكنية. ولم يعودوا يهوون السكن في المغاور، وحتّى أن هذه المغاور لم تعد تكفيهم، فبدأوا ببناء البيوت من الأحجار. وهكذا بدأ فنّ العمارة. وأقدم مدينة في لبنان هي مدينة جبيل.

وأدّى الاستقرار في بيوت وقرى إلى بدء الحضارة الفعلية، فأخذ الإنسان يجمع معارفه ويراكمها ويعلّمها للأجيال المقبلة، وهكذا أصبحت المعارف تتراكم وتنتقل ولا تضيع، ممّا يسمح بحصول تطوّر أكثر واكتشافات أهمّ من إرث البشرية.

بدايات الدين

منذ أن استقرّ الإنسان وعرف الزرع، وتعرّف أكثر إلى عوامل الطبيعة كالرياح والأمطار والشمس، ومنذ أن بدأ فكره يتجوّل في أمور الدنيا، اتجه تفكيره إلى وجود قوى خارقة تسيِّر الطبيعة. فاعتقد بوجود آلهة وقرنها بكل ما يراه من قوى تفوق تفكيره. فعبد الشمس، لأنها كانت تعطيه الدفء والنور، وتساعد الزرع في النموّ. كما عبد الأرض، لأنها تنبت له الحبوب، وعبد الماء. وفي الوقت نفسه خاف من هذه الآلهة التي صنعها لنفسه، واعتبر أن غضبها يسبّب له الأذى.

وفكّر إنسان العصر الحجري القديم بالموت وما وراءه، وهناك مكتشفات تدّل على وجود أفكار مبهمة لدى هذا الإنسان عن حياة ما بعد هذه الحياة. ومن هذه المكتشفات أوانٍ وقرابين عُثر عليها في حفريات النطوف يعتقد أنها كانت توضع مع الميت من أجل استعمالها في حياته الأخرى.

الفنون

مع تطوّر تفكير الإنسان الحجري الحديث، لم تعد الأدوات التي يصنعها تُستعمل فقط لأغراض المنفعة كالصيد والقطع والكشط، بل أخذ يصنع أدوات، وأوانِ ذات خلفية جمالية وبأهداف فنية.

وعُثر في حفريات أجريت على مكتشفات تعود إلى العصر الحجري الحديث، هي كناية عن عقود من الخرز والأصفاد المثقوبة. كما عُثر في حفريات جبل الكرمل على عظام نقشت عليها رسوم لرؤوس ثيران. وكانت هذه الأدوات التجميلية تُستعمل في البداية لأهداف الحماية، وهي مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالسحر. إذ كان يظنّ أن وضع قلادات عليها رسوم لحيوانات تردّ عن الإنسان أذى ذلك الحيوان.

صناعة الخزف

تمَّ اكتشاف الخزف في أواسط العصر الحجري المتوسط، عن طريق المصادفة، كما كان الأمر بالنسبة إلى اكتشاف النار. فقد اكتشف الإنسان عن طريق احتراق كوخ مصنوع من الطين، أن هذا الطين يصبح صلباً ولا يخترقه الماء إذا ما احترق بالنار.

ومع مرّ السنوات، فكّر الإنسان في صنع آنية وجرار من الطين، تُحرق بالنار فتصبح صلبة، ويستعملها لخزن الطعام والماء.

وكان لاكتشاف الخزف انعكاسات مهمة على حياة الإنسان في تلك الحقبة، إذ سمح هذا الاكتشاف للإنسان بخزن الطعام، وبالتالي بالاستقرار إلى تأمين طعامه لعدد من الأيام. ومن ميزات الأواني الفخارية أنها لا تفسد، وتعزل الحرارة الخارجية، وبالتالي تلعب دوراً في حفظ الطعام في حالة جيدة مدّة أطول. وما زال الخزف يستعمل حتى يومنا هذا للأسباب ذاتها، فإنه يتحمّل الحرارة والبرودة، ولا تنحلّ منه مواد على الأطعمة.

وأسهم هذا الاكتشاف الذي سمح بخزن الطعام في إعطاء فسحة استقرار

للإنسان، ممّا ترك له وقتاً للتفكير والخلق والاتجاه نحو الفنون.

وأقدم أنواع الخزف عُثر عليها في الحفريات التي جرت في مدينة أريحا الفلسطينية، وتعود إلى حوالي ٥٠٠٠ سنة ق.م. وعُثر أيضاً على آنية معاصرة في شمال بلاد ما بين النهرين. وكانت هذه الآنية عبارة عن جرار ذات مقابض وقاع مسطّح.

وعُثر في لبنان على آنية خزفية تشبه الآنية التي عُثر عليها في أريحا وبلاد ما بين النهرين، إذ كانت هذه الصناعة تتناقل بين شعوب المنطقة آنذاك، وعُثر في جبيل على قطع من الخزف تعود إلى العصر الحجري الحديث.

وحوالي ٤٥٠٠ سنة ق.م. بدأ الإنسان يطوّر في صناعة الخزف، وراح يطلي الأواني بمواد لامعة وحافظة، وبدأ يرسم عليها رسومات بدائية.

وحوالي ٤٠٠٠ ق.م. اكتشف الإنسان دولاب الخزّاف، وأخذ يصنع الأواني بواسطة الدولاب، بعدما كان يُصنع يدوياً. وهكذا تطوّرت صناعة الخزف وتحسّنت تحسّناً ملموساً، وبدأت تصبح فنّاً قائماً بذاته.

ويمكن لهذه الصناعة، وخصوصاً لتطور الفن فيها، وللرسوم عليها، أن تعطي فكرة عن أذواق الناس وديانتهم وحضارتهم.

ويبدو واضحاً من التشابه القائم بين الأدوات الخزفية التي عُثر عليها في أماكن مختلفة أن التبادل التجاري وتبادل الأفكار كان قائماً بين المجتمعات آنذاك.

والفخّار هو من القطع التي لا تفسد، لذلك فإنها بقيت مدفونة في التراب، وإن موزّعة أجزاء أحياناً وأحياناً أخرى كاملة، لتشكّل أهمّ الآثار المكتشفة من الحياة اليومية للإنسان، والتي تعطي فكرة مهمّة عن مدى تطوّر صناعته وفنونه وعن أساليب طعامه وحياته اليومية، وحضارته وتداخل حضارات شعوب مختلفة، إضافة إلى ما توحي به الرسوم أو الكتابات الموجودة على الآنية الفخارية.

آثار بيروت ما قبل التاريخ

في الحفريات الأخيرة التي أُجريت في بيروت، عثر المنقّبون على مقبرة يُعتقد أنها تعود إلى حقبة قديمة جداً. ولم تحوِ الطبقات الرملية التي عُثر فيها على بقايا عظام على أيّة فخاريات، ممّا يعني أن الجثث تعود إلى حقبة تسبق اكتشاف الفخار. كما أن الهياكل العظميّة سوداء اللون، ممّا يوحي بقدمها.

وإذا ثبتت الترجيحات، فإن هذه المقبرة التي عُثر عليها في ساحة الدباس قد تعود إلى العصور الحجرية.

وعُثر أيضاً في بيروت على قطع صوانيه، ويرجّح أن يكون الإنسان القديم قد أخذ من هذه المنطقة موقعاً لسكناه.

وعُثر أيضاً على طبقات تعود إلى العصر الحجري في محيط كنيسة مار مارون، ممّا يرجح امتداد المنطقة التي سكنها الإنسان الأول على مساحة واسعة.

ويعتقد أن تاريخ بيروت يعود إلى العصر الحجري القديم، حيث سكن الإنسان الكهوف، ومنها كهوف موجودة عند شاطىء رأس بيروت. وعُثر على رؤوس أسهم وأدوات مصقولة على الشاطىء الجنوبي لبيروت، وتحديداً في منطقة برج البراجنة. كما عُثر في العام ١٩٣٠ على آثار قرية حجرية في منطقة تلّ أرسلان الواقع الآن في حرم مطار بيروت، كما وجدت آثار للإنسان القديم في جنوب بيروت والروشة، حيث اكتشفت أدوات ترجع إلى العصر النحاسي.

آثار جرف الأحمر في سوريا

تقع قرية جرف الأحمر على الضفة الشمالية لنهر الفرات على بعد مئة كيلومتر شرق مدينة حلب. وقد عاش في هذه المنطقة شعب ما بين العامين ٩١٠٠

ق.م. و٨٧٠٠ ق.م.

وعُثر في هذه المنطقة على أحجار حفرت عليها رسوم ورموز مجرّدة تؤكد استعمال سكان من العصر النيوليتي الشرق أوسطي لنظام من الرموز، فظهر في جرف الأحمر للمرة الأولى تزيين يمزج بين الصور والرموز المجرّدة. وعُثر على حجرين حفرت عليهما رسومات ورموز، مثل رسم لعينين مستديرتين ورموز أخرى. وعلى الجانب الآخر للحجر يُلاحظ إعادة للرمز عينه مع نقط وأشكال قرون.

ويشير أحد العلماء إلى أنه يفترض اعتبار القطع تلخيصاً مصوّراً يدلّ على قصة كاملة. ويشير الرسم التصويري في لغة طقوسية إلى قصة ذات طبيعة أسطورية.

ويُلاحظ أن موضوع الحيوانات الكاسرة والبوم والحيوانات ذات القرون هو الأكثر انتشاراً في النقوشات.

ولا يزال يصعب حتى اليوم التوصل إلى معرفة معنى هذه الرسائل المحفورة.

فن العمارة في جرف الأحمر: تتكوّن أبنية جرف الأحمر من مجموعة منازل نصف مطمورة ونصف دائرية ومنازل بجدران مستقيمة وزوايا مستديرة. وقد بنيت الجدران على أساسات من الدبش الكلسي الصلب مع أحجار محفورة بتأنٍ في حجر كلسي حواري ليّن. وكانت التجهيزات البيئية قائمة خارج المنزل في مساحات مرصفة، حيث تفتح مواقد مجوّرة تملأها الحصاة وأحواض من الحجر معدّة للخزن.

الزراعة: استُعمل في تلك الفترة الشعير كغذاء وكمزيل للدهون، وكان هذا الشعير برياً غير مدجَّن، على ما يُعتقد. وهناك احتمال لأن يكون الشعير قد بدأ يزرع ويحرث في تلك الفترة.

الفصل السادس

عصر المعادن

العصر النحاسي ـ الحجري

انتهى العصر الحجري الحديث بحصول التطورات التي سبق أن أوردناها، وبدأ الإنسان يهتم قليلاً بالفنون والدين، بعدما استقرّ في بيوت حجرية وأخذ يخزن غذاءه.

وبعد العصر الحجري بدأ عصر المعادن، وسميّ كذلك نسبة إلى بدء الإنسان باستعمال الأدوات المعدنية، بدلاً من الحجارة. وهذا تطوّر مهمّ جداً، لأن المعادن تحتاج إلى مهارات أكثر من الحجر.

وأوّل معدن صنَّعه الإنسان كان النحاس. والنحاس معدن ليّن نسبياً طريّ، بدأ استعماله حوالي ٤٠٠٠ ق.م. وحصل اكتشاف النحاس، على ما يُظنّ عن طريق الصدفة، تماماً كما اكتشف الإنسان النار والخزف، ويحتمل أن يكون موقد من الحجارة والتراب الذي يحتوي على النحاس قد احترق، وظهر في الرماد نوع من المعدن، تعرَّف إليه الإنسان يوماً بعد يوم، واكتشف ميزاته، وبدأ باستعماله.

ولكن استعمال النحاس لم يبدأ في شكل واسع إلاّ بعد حوالي الألف عام على اكتشافه. والسبب في ذلك أن معدن النحاس هو معدن ليّن نسبياً ينكسر في سرعة، وتصنيعه صعب. لذلك ظلّ الإنسان يستعمل الحجر إلى جانب النحاس، الذي كانت صناعته حكراً على بعض المهرة. وسميّ ذاك العصر بالعصر النحاسي ـ الحجري.

أما استعمال النحاس في شكل واسع فلم يبدأ إلاّ حوالى ٣٠٠ عام ق.م. وعُثر على أدوات وآثار تعود إلى تلك الحقبة في أوغاريت وجبيل وفلسطين وشمال سوريا وسيناء وعمّان والعراق.

ويُعتقد أن استخدام النحاس بدأ أوّلاً لأهداف حربية ودفاعية، واستُعمل لصنع

أدوات للحرب، لأن الإنسان اكتشف أن هذا المعدن أقوى وأكثر فاعلية في الحروب من الحجر. وبعد ذلك بدأ الإنسان يستخدم النحاس للأمور اليومية، كصنع الحلى للزينة، ثم صنع الأدوات المنزلية كالآنية والأباريق. ثم صنع الآلات الزراعية الخاصة بالحراثة.

عصر البرونز

بدأ عصر البرونز حوالي ٢٦٠٠ ق.م. وأعقب العصرُ البرونزي استعمالَ النحاس. ثم أتى اكتشاف الحديد والفولاذ حوالي ١٢٠٠ ق.م. واستمر عصر الحديد إلى ٣٠٠ ق.م.

وفي العصور المعدنية، تطوّر الإنسان تطوّراً كبيراً، وخطا خطوات واسعة نحو الحضارة، كلّ ذلك بفضل ما قدّمه استعمال الأدوات المدنية من آفاق.

وأهمّ التطوّرات التي اتّسم بها هذا العصر هو تطوّر فنّ العمارة. فقد أصبحت البيوت أكبر حجماً وأفضل شكلاً. وكانت البيوت المستطيلة مخصّصة للسكن، أما البيوت المستديرة، فهي أماكن للعبادة. وكانت جدران البيوت تصنع من الطين من الداخل وبحجارة من الخارج. وكانت أرض المنزل مرصوفة بالقصب وفوقها طبقة من الطين، مع فناء أو دار أمام المنزل.

وتعتبر بقايا الأبنية الحجرية التي عُثر عليها في مدينة جبيل من أقدم الأبنية الحجرية في الشرق، وربّما في العالم أجمع. ويعود تاريخ هذه الأبنية إلى ٣٢٠٠ ق.م. كما عُثر على مقبرة هناك يعود تاريخها إلى ٣٥٠٠ ق.م.

وفي تلك الفترة تطوّر أيضاً الاهتمام بالحيوان وتربيته. وأصبحت الزراعة وتربية الماشية من مستلزمات الحياة. وازداد اعتماد الإنسان على الأبقار والغنم والماعز. أمّا بالنسبة إلى المزروعات، فقد دخلت في هذا العصر زراعة أنواع من الخضار كالبصل والثوم والخسّ والحمّص والفول.

كما تطوّر فنّ البناء والزراعة، تطوّر أيضاً فكر الإنسان ونظرته إلى الحياة والموت والدين، أي إلى الحضارة الإنسانية الحقيقية.

وتظهر لنا الآثار المكتشفة اهتماماً بالميت ومصيره بعد الموت. وقد عُثر في حفريات جبيل على مقابر هي عبارة عن جرار من الفخار كانت توضع الجثث داخلها في شكل يشبه وضعية الجنين في أحشاء أمه، في إشارة إلى نظرة الإنسان إلى الولادة الجديدة بعد الموت، وقد كانت هذه الجرار تُدفن تحت البيوت.

وشكّل التعدين خلاصة للاكتشافات الإنسانية المتتالية، والتي تطوّرت من الصناعة الحجرية، مروراً بالصناعة المختلطة بين الحجر والمعدن، وصولاً إلى التعدين.

وفي البدء، تعامل الإنسان مع المعدن كما هو في الطبيعة وكأنه قطعة حجر، فشحذها وأعطاها أشكالاً. ومع مرور الوقت اكتشف أن المعدن هو مادة طيّعة أكثر من الحجر، وأنها إذا سُخنت على النار ووصلت إلى درجة حرارة مرتفعة فإنها تصبح أكثر ليونة وأكثر سهولة للتصنيع من الحجر.

وبعد التمكّن من صناعة الأدوات المعدنية، اكتشف الإنسان تقنية التعدين، وهي استخلاص المعدن الخام من المواد التي يتشكّل منها، فأخذ ينقّب عن المعادن تحت الأرض ويستخرجها ثم يصنّعها.

وانعكست صناعة التعدين تطوّراً كبيراً على حياة الإنسان وعلى طرق عيشه، ورفعت من مستواها. وبدأ منذ ذلك التاريخ استهلاك المواد الخام الموجودة في الأرض والتي لا يمكن تعويضها في سرعة أو حتى أنه قد لا يمكن تعويضها أبداً.

وأدت صناعة المعادن إلى إيجاد أنواع جديدة من الأعمال غير الزراعة وتربية المواشي، وبدأ العمّال يتخصّصون في أنواع معيّنة من المهام. فكان هناك من يستخرج المعدن من الأرض وينقّيه، وهناك فئة أخرى من العمّال مهمتها تحويل المعادن إلى أدوات مفيدة، وهذه الفئة قوامها الحدّادون.

وأدخل التعدين الإنسان في العصر الصناعي، وانعكس أيضاً على البعد الاجتماعي لحياة الإنسان، فأدّى تقسيم العمل إلى إيجاد طريقة لتقسيم المنافع على فئات العمّال المختلفة، وأحياناً كثيرة لم يكن تقسيم المنافع عادلاً. ومن هنا بدأت

ربّما الطبقات الاجتماعية بالنشوء.

ويقول أرنولد تويني في كتابه «تاريخ البشرية» الذي ترجمه إلى العربية الدكتور نقولا زيادة «إن اختراع التعدين زرع بذور التباين الطبقي والخصومة الطبقية. واسم العائلة «الحدّاد» هو دليل على أنه في القرية الخلكوليتيّة كان يعتبر أنه قروي من نوع يختلف عن الغالبية غير المتخصصة من سكان القرية. ولعلّه من الصحيح أن العصر الحجري القديم قد عرف مبادىء التخصص التكنولوجي. فإنسان العصر الحجري القديم عرف أن الأنواع المختلفة من الصوان كانت ذات قيم مختلفة بالنسبة إلى صنع أدواته».

تداخل الأعراق في العصر المعدني

أوردنا سابقاً إنّ إنسان انطلياس وإنسان جبل الكرمل يعودان إلى العصر الحجري القديم، ولهما مزايا جسمانية بدائية تختلف عن مزايا الإنسان المعاصر.

أمّا إنسان العصر الحجري الحديث وبداية العصر المعدني فينتمي إلى عرق حوض البحر الأبيض المتوسط. وعُثر على آثاره في حفريات جبيل (٣٥٠٠ ـ ٣٢٥٠ ق.م.) وفي أماكن أخرى من منطقة شرق المتوسط. وإلى هذا العرق تنتمي الشعوب التي كانت تعيش في دول حوض البحر المتوسط.

وصفات هذا الإنسان أنه كان قصير القامة نسبياً، ويتمتع ببنية معتدلة القوة، شعره قاتم كثيف.

وظهرت في العرق المتوسطي مزايا أخرى، هي مزايا العرق الأرمني. ويحدث تمازج الأعراق نتيجة الهجرات المتتالية والاختلاط بين الشعوب. والعرق الأرمني هو جزء من العرق الألبي. وقد هاجرت جماعات من هذا العرق في العصر النحاسي الحجري من مواطنها في الجبال الواقعة في أواسط آسيا.

ويتميز إنسان هذا العرق بأنفٍ عالٍ منحنٍ قليلاً، وجمجمة قصيرة مستطيلة مفلطحة عند مؤخرتها. والإنسان اللبناني الحديث يميل إلى قصر في القامة وبدانة في الجسم، وبنية قوية.

أمراض الإنسان القديم

لم يكن إنسان ذاك العصر يعمِّر طويلاً، بل كان في الغالب يموت في ريعان الشباب، بسبب ما يعانيه في حياته من مصاعب مع الطقس والمحيط والحيوانات والتصارع، وأيضاً بسبب الالتهابات التي تحدث مع الجروح وفتك الفيروسات به وما إلى ذلك.

وأظهرت دراسة على سبعين هيكل عظمي لأناس ما قبل التاريخ أن أقل بقليل من خمسين في المئة من الناس كانوا يبلغون الواحد والعشرين عاماً، فيما يصل حوالي ١٢ بالمئة إلى سن الأربعين، وبيّنت الدراسات على هياكل النساء أن أيّاً منهنّ لم تتجاوز سنّ الثلاثين.

ويمكن للعلم حالياً وبفضل تقنياته الحديثة تحديد الأمراض التي أصابت صاحب هيكل عظمي موغل في القدم. وهكذا دُرست الهياكل العظيمة التي عُثر عليها بتقنيات التصوير المغناطيسي وتحليل الحمض النووي (A. D. N)، وحُدّدت طبيعة الأمراض التي فتكت بإنسان العصور الحجرية قبل عشرات آلاف السنين.

وأكثر الأمراض انتشاراً كانت الأمراض التي تصيب العظام والعمود الفقري والتهابات النخاع الشوكي، ممّا يدلّ إلى حياة بدوية. وكانت شائعة أيضاً أمراض المفاصل الناتجة عن التقلبات المناخية وسواها، أما الرضوض في الجمجمة فكانت نادرة.

وبيّنت دراسة الهياكل العظمية وجود نقص في التغذية لدى بعض الأشخاص، والتهابات ناتجة عن فطريات عالقة في الغذاء.

ويعتقد علماء المتحجّرات أن خبرة الإنسان القديم أوصلته إلى معرفة نوع من الطب والعناية بالمريض. وظهر أن كسوراً عدة جرى تجبيرها، بواسطة تثبيت الرجل أو اليد إلى دعامة، وإراحة المريض لفترة معيّنة، وحتى أن بعض التمزّقات العضلية المتقدّمة تبدو قد شفيت.

إذاً، إن الأمراض الأكثر انتشاراً هي التهابات العظام والالتهابات الناجمة عن

الفطريات والأورام الحميدة، إضافة إلى مرض السفلس والسلّ.

وإذا كانت الأمراض السرطانية وأمراض الشرايين نادرة، فذلك عائد إلى أنّ الناس لم يكونوا يعمّرون إلى السنّ التي تسمح بظهور هذا النوع من الأمراض.

الفصل السابع

استقرار الكنعانيين

بدء التاريخ المدوّن

شكّلت هجرة الشعوب السامية إلى منطقة الهلال الخصيب، في الوقت الذي ظهرت فيه الكتابة، نهاية لعصر ما قبل التاريخ المدوَّن، وبداية التاريخ المكتوب في هذه المنطقة، التي انطبعت أولاً بالعصور السامية القديمة.

وكانت الكتابة في أشكالها البدائية ثم المتطوّرة المرحلة الفاصلة بين عصور ما قبل التاريخ وبداية التاريخ المدوَّن، هذه الكتابة التي سمحت للإنسان بتدوين تفاصيل وأمور كثيرة تبقى ذخراً للأجيال المقبلة وتسجّل مراحل مهمة في تاريخ الشعوب.

والكتابة بدأت كما هو معروف في منطقة الشرق الأوسط. وقبل اكتشاف الحروف الأبجدية، شاع نظامان كتابيان: الكتابة المسمارية التي بدأت في بلاد ما بين النهرين، والكتابة الهيروغليفية التي انطلقت من مصر القديمة.

في تلك المرحلة بالذات، أي حوالي ٣٠٠ ق.م. أتى إلى لبنان شعب سامي عُرف بالشعب الكنعاني، وسكن الساحل اللبناني امتداداً إلى فلسطين في الجنوب والساحل السوري شمالاً.

ودخل الشعب الكنعاني إلى لبنان عن طريق شمال سوريا والبقاع على شكل قبائل بدوية، في الوقت عينه الذي هجرت فيه القبائل الأمورية من الصحراء العربية إلى بلاد ما بين النهرين. ولم تكن هناك في الأساس فروقات عرقية مهمة بين الشعبين الكنعاني والأموري، ولكن هذه الفوارق بدأت تظهر على مرّ السنين بفعل الاختلاط مع شعوب مختلفة والسكن في منطقتين مختلفتين.

فالشعب الأموري الذي توطّن شمال سوريا، اكتسب مزايا جسدية معينة بفعل اختلاطه مع السومريين والحوريين. أما الشعب الكنعاني الذين توطّن الساحل

اللبناني فقد اكتسب مع الوقت مزايا جسدية متوسطية.

وتقول رواية أخرى إن الكنعانيين أو الفينيقيين قدموا إلى لبنان من منطقة الخليج العربي. ويذكر الجغرافي شرابو اسمي جزيرتين في الخليج، الأولى تدعى صور، والثانية أرواد، ويقول إن فيهما هياكل تشبه الهياكل الفينيقية.

وفي إحدى الجزر الواقعة في بلاد البحرين عُثر على قبور شبيهة بالقبور الفينيقية. وهناك مدينة اسمها صيدا تقع على شاطىء الجزيرة العربية الشرقي.

ولكن هذه النظرية تبقى غير مؤكدة بعد، لأنها لم تُشبع درساً وتحليلاً كافيين لإثبات قدوم الفينيقيين من منطقة الخليج إلى لبنان وسوريا وفلسطين.

وقبل قدوم الكنعانيين إلى الساحل الشرقي للبحر المتوسط، كان قد سبقهم إلى هذه الأرض شعب آخر، لم تحدّد هويته بعد، وقد ترك آثاراً وآنية تشبه الآنية الفخارية التي عُثر عليها في تلال غصول في الأردن والتي ترجع إلى الألف الرابع قبل الميلاد.

ويعتقد عدد من المؤرخين أن الكنعانيين أتوا من منطقة البحر الأحمر أو خليج العقبة تحديداً، وأنهم مرّوا عبر البحر الميت. وسكنوا أولاً سوريا، قبل أن ينتقلوا منها إلى المناطق الساحلية التي عُرفت بفينيقيا.

ويقول المؤرخ جوستين أن الفينيقيين هجروا الأماكن التي كانوا يسكنون فيها بعد تعرضها لزلازل متتالية.

وتشير وثائق رأس شمرا إلى أن الفينيقيين أتوا من شبه جزيرة سيناء، وهم بالتالي قسم من هجرة الشعوب السامية التي حصلت في ذلك الزمان.

النظام السياسي لفينيقيا

كان لبنان أو فينيقيا في عهد الفينيقيين يقوم على نظام «المدن ـ الدول». فكانت كلّ مدينة من مدن الساحل دولة قائمة بذاتها، يحكمها ملك وتتمتّع باستقلال ذاتي. ولم تكن هذه المدن موحّدة يوماً لتشكّل دولة قوية ذات نفوذ على

الدول المحيطة. فنظام «المدن ـ الدول»، هو نظام يؤدي إلى نشوء دويلات صغيرة غير قادرة على الاقتواء على جاراتها ذات المساحة الواسعة والشعب العديد.

وعلى طول الشاطىء اللبناني نمت مدن مهمة واشتهرت، وأبرز هذه المدن كانت أرواد في شمال فينيقيا والتي تقع الآن في بلاد سوريا، ومدينة جبيل شمال بيروت ومدينتا صور وصيدا في الجنوب. وكانت هذه المدن تستغلّ موارد البلاد الواقعة في تخومها وخلفها في الجبال اللبنانية، وتتعامل بالتجارة عبر البحر الأبيض المتوسط.

وكانت هذه المدن بسبب استقلاليتها تعاني من أنظمة سياسية ضعيفة ومن عدم استقرار سياسي وعسكري، وهذا أدّى بالطبع إلى ضعف سيادة هذه المدن.

وهذا النمط السياسي شجّع في الوقت نفسه المبادرة الفردية من الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية. فقامت صناعات وأعمال فردية، وأتيحت الفرص أمام النشاط الفردي.

وكان تاريخ فينيقيا هو تاريخ هذه المدن الأربعة في شكل خاص، وتاريخ تناحرها في ما بينها أو تصالحها، وقد كانت هذه المدن في الغالب، وإن لم يكن من حدود جغرافية بينها، تتناحر وتتنافر في كثير من الأحيان وتتحالف الواحدة مع المحتلّ ضدّ الأخرى، وتشهد فترات أخرى مراحل من الاتفاق والوئام.

وكانت المدن الفينيقية منعزلة الواحدة عن الأخرى، وسبب هذه العزلة هو المنافسة التجارية في الأساس ورغبة كل مدينة في تسلّم زمام الزعامة على المدن الفينيقية الأخرى. وزادت هذه العزلة السياسية عزلة دينية. فقد كانت لكلّ مدينة آلهتها الخاصة. وكان من الصعوبة بمكان القضاء على المنافسة التجارية الشرسة بين هذه المدن المفتوحة جميعها على المتوسّط.

ورغم ذلك فقد مرّت فترات وحدة أو تقارب فرضتها المصلحة المشتركة أو الأزمات، وكان الاتحاد يتمّ في معظم الأحيان تحت زعامة دولة ـ مدينة.

وكمثال على هذا الاتحاد، ترأست مدينة أوغاريت اتحاداً للمدن الفينيقية في

القرن السادس عشر قبل الميلاد، فيما كانت جبيل وأرواد في هذا الموقع في القرن الرابع عشر. وترأست صيدا اتحاد الدول المستقلة في القرن الثاني عشر، وصور كانت قائدة الاتحاد في القرن الحادي عشر إلى القرن التاسع، فيما ترأست طرابلس هذا الاتحاد في القرن الخامس.

أما التنظيم السياسي الداخلي فاعتمد أسساً ديموقراطية تمثيلية. حيث لم يكن الملك مطلق الصلاحية أو بمثابة إله كما هو الحال في مصر مثلاً. ويصحّ إطلاق تسمية «الحكم الملكي - الجمهوري» على نظام الحكم في فينيقيا. إذ كان هناك ملك ومجلس شيوخ منتخب.

١ - **الملك**: على الملك الذي يترأس حكم المدن الفينيقية أن يتحلّى بمزايا محدّدة تجعله أهلاً لتولّي المسؤولية الملقاة على عاتقه، فعليه أولاً أن يكون متحدّراً من عائلة نبيلة، وحتى من عائلة مقدّسة، إذا صحّ التعبير، وهذا الأمر كان مألوفاً في تلك الأيام، ولم يزل سائداً في كثير من الممالك في عصرنا الحالي.

وإلى جانب نسبه، على الملك الفينيقي أن يتحلّى بصفات أخلاقية وفكرية، فعليه أن يحسن التعامل مع الناس وأن يحافظ على احترامهم له من خلال تصرّفاته وممارسته للحكم. وعليه أن يكون ذات تفكير راجح قادر على قيادة الأمور في الأوقات الصعبة، فهو حاكم البلاد الذي يتحمّل مسؤولية المحافظة عليها، وعلى التطبيق العادل للقوانين والإنصاف في الرعية. وعليه أيضاً أن يرئس الجيش، وهو عملياً القائد الأول للجيش في المعارك.

وللملك طبعاً بعض الامتيازات التي هي في الغالب امتيازات مادية، خصوصاً في المجتمع الفينيقي القائم على التجارة والمادة.

ولكن هذا الملك لم يكن ملكاً مستبدّاً، بل كان يخضع لمحاسبة مجلس الشعب، وهو يتبع في حكمه مجموعة تقاليد وأعراف، تثبّتت مع الوقت، وأصبحت تسيِّر طريقة الحكم، في ما يشبه اليوم الدستور.

وعلى هذا الملك إذا أخطأ أن يقدّم حساباً أمام مجلس الشعب، الذي يراقب

أعماله، وكذلك أمام الآلهة.

وكان انتقال الحكم وراثياً من حيث المبدأ. إلاّ أنه يحقّ للملك تسمية خلفه، واختيار شخص آخر غير وريثه الطبيعي في حال لم ير في هذا الوريث المزايا المناسبة لتسلّم زمام الحكم. وقد لا يكون الابن البكر هو خليفة والده، الذي قد يختار ابنه الأصغر أو ربّما شخصاً غير ابنه. وإذا كان الخلف قاصراً تتسلّم أمه مقاليد الحكم لحين بلوغه سنّ الرشد. وقد اشتُهرت النساء في المجتمع الفينيقي، وعلى رأسهن أليسا، التي بنت مستعمرة قرطاجة في تونس على الشاطىء الشمالي لأفريقيا.

٢ ـ **الشفاتيم**: كما أوردنا، كان يعود إلى الملك الفينيقي أن يختار خلفه، الذي ربّما لا يكون الوريث الطبيعي له. وفي بعض المرّات يكون وريث الملك غير أهل لتسلّم الحكم. فكانت المدينة تلجأ إلى اختيار شخص من خارج العائلة المالكة، تجتمع فيه المزايا الحسنة لقيادة البلاد. وكان هذا الأمر يتمّ توافقياً وفي طريقة سلميّة، ممّا أعطى طابعاً ديموقراطياً للنظام السياسي الفينيقي، وسمح بانقلاب نظام الحكم سلمياً من النظام الملكي إلى النظام الجمهوري منذ العام ٥٦٤ ق.م. في صور، ثم في مستعمرة قرطاجة.

وينصّ هذا النظام على اختيار قاضيين (الشفاتيم) لإدارة شؤون البلاد، في حال لم تتوافر الشروط المطلوبة في وريث الملك. وكان الشفاتيم يحكم البلاد بالتعاون مع مجلسي الشيوخ ومجلس الشعب. وللشفاتيم صلاحيات واسعة جداً، لكنها لا تشمل الجيش. ويساعد الشفاتيم إداريون يتابعون القضايا اليومية. وهؤلاء يشبهون الوزراء في أيامنا.

٣ ـ **مجلس الشيوخ**: هو مجلس يتألف في غالبية المدن الفينيقية من ٣٠٠ عضو ينتخبهم مجلس الشعب. ويهتمّ هذا المجلس تقريباً بكلّ شؤون البلاد السياسية والاجتماعية والاقتصادية. ويقوم بانتخاب «الشفاتيم»، ويعمل على مراقبة أعماله، واستطاع مجلس الشيوخ في صور أن يتّخذ قرارات في غياب الملك.

٤ ـ **مجلس المابة**: هذا المجلس هو كناية عن مجلس شيوخ مصغّر. فقد

انبثق من مجلس الشيوخ، لكنه يتمتّع بصلاحيات أوسع عند الأحداث المهمة. ويحقّ له محاسبة «الشفاتيم» في شكل أكثر صرامة. وقد توصّل هذا المجلس إلى تحدّي سلطة الملك في مدينة صيدون.

٥ ـ **مجلس الشعب**: ويتمثل دور هذا المجلس بانتخاب مجلس الشيوخ من الارستقراطيين وتكون له الكلمة الفصل عندما يدبّ الخلاف حول أمر ما بين «الشفاتيم» ومجلس الشيوخ.

لكن الصلاحيات الفعلية لهذا المجلس أصبحت هامشية في ظلّ التوافق بين «الشفاتيم» ومجلس الشيوخ على تقاسم مهام الحكم وإبعاد مجلس الشعب عن التدخّل بينهما.

الحياة الحزبية

وممّا يثير العجب أن المدن الفينيقية عرفت في تلك الفترة من الزمن نوعاً من الحياة الحزبية الشبيهة بالحياة الحزبية الحالية، من حيث تعدّد الأحزاب وتنافسها واختلافها في الآراء.

ففي مدينة صور مثلاً قام حزبان كبيران، الأول هو حزب الأشراف، ضمّ الارستقراطيين والكهنة، وحزب الشعب، الذي ضمَّ غالبية الناس من غير الأسر الأرستقراطية. وقد احتدم الخلاف مرّات عدّة بين هذين الحزبين. ونستنتج أن الحياة السياسية والحزبية قامت هنا على أساس اجتماعي طبقي وماديّ في آن.

أمّا في قرطاجة التي عرفت تنظيماً سياسياً متقدّماً منذ إنشائها، فقد تعدّدت فيها الأحزاب ونشأ حزب الارستقراطيين وحزب الديموقراطيين، وحزب الإقطاعيين الملاكين. وهنا أيضاً يظهر التقسيم الطبقي ـ السياسي، أكثر منه تقسيم طبقي محض، لأن الحياة السياسية في هذه المستعمرة كانت تُعدّ متطورة جداً في ذلك العصر.

وعرفت الأنظمة السياسية المتّبعة في المدن الفينيقية نوعاً من الاستقرار والثبات، ذلك أن المجتمع مقسّم تقسيماً اجتماعياً ـ مادياً، والرخاء يسيطر نسبياً

على المجتمع الفينيقي، حيث طبقة الأثرياء والميسورين، وهؤلاء جميعاً يحتاجون إلى استقرار سياسي يضمن لهم ازدهار تجارتهم، والتجّار عادة لا يهتمون كثيراً بالسياسة.

وقد عرف الحكام كيف يحافظون على رضى الشعب، فمنحوه نوعاً من الحرية من خلال نظام ديمقراطي فيه محاسبة للملك. وأمّنوا له حاجاته الاقتصادية من دون عوز. وأسهم إنشاء المستعمرات في ما وراء البحار في سدّ أي نقص اقتصادي وفتح أسواق جديدة وأبواب رزق، ممّا أسهم في الحفاظ على حدّ أدنى من الرخاء يمنع قيام أية ثورات اجتماعية.

الفئات الاجتماعية في فينيقيا

يمكن القول إن الميزة الأساسية للمجتمع الفينيقي هي عدم وجود طبقة للعبيد فيه، فيما كانت المجتمعات الأخرى في ذلك العصر، بغالبيتها، تعيش نظام الاستعباد. وينقسم المجتمع الفينيقي إلى طبقتين رئيسيتين هما: الأشراف والعامة. والأسس التي تحدِّد انتماء شخص ما إلى إحدى هاتين الطبقتين هي أسس ماديّة، أي أن القدرات المالية لشخص ما هي التي تضعه في خانة أيّ منهما. وهو يبقى مرشحاً للانتقال إلى الطبقة الأخرى في أيّ لحظة ينقلب فيها وضعه المادي من الغنى إلى الفقر أو العكس.

وتوصَّل المؤرخون إلى تحديد فئات عدّة بارزة في نطاق كل من الطبقتين الاجتماعيَّتين، وفقاً لمعايير النسب أو الوظيفة أو الموقع الاجتماعي والديني والسياسي، وهذه الفئات هي الآتية:

أولاً: **الأشراف** وفي طليعتهم الملك وعائلته، ومن ثمّ النبلاء والكهنة والقادة العسكريون.

١ ـ **الملك وعائلته**: كان الملك في المجتمع الفينيقي ذا سلطة سياسية ودينية معاً، ذلك أن العرش مقدّس والقيّم عليه أشبه بإله تُحترم إرادته على هذا الأساس، ومخالفته تعني مخالفة الآلهة. وكانت زوجته ذات شأن رفيع في اتخاذ القرارات،

وهي تتولّى الوصاية على الحكم إذا كان وليّ العهد قاصراً. وغالباً ما تضطلع الملكة بدور الكاهنة الكبرى. ويرتكز المؤرخون على هذا الدور لإثبات ما للمرأة من موقع في المجتمع الفينيقي. وفي هذا الإطار يسجّل التاريخ نماذج عدة تولّت خلالها الأميرات العرش، إذا ما توفيت الملكة ولم يكن ولّي العهد قد بلغ السن التي تخوّله تسلّم زمام المملكة. كما يسجّل التاريخ زواج الشقيق من الشقيقة أحياناً، رغبة منهما في الحفاظ على صفاء النسب الملكي.

٢ ـ **النبلاء**: وهم عادة الميسورون مادياً، ومعظمهم من التجار وذوي الصناعات الحرفية التي اشتهرت بها المدن الفينيقية في ذلك العهد، ولا سيما الزجاج وصباغ الأرجوان، إضافة إلى أصحاب النفوذ الاجتماعي والإقطاعيين. ومن مميزات هذه الطبقة أن المنتمين إليها يمكن أن ينتقلوا بينهما وبين طبقة العامة، وفقاً لنجاحهم في الحفاظ على ثرواتهم. وهناك استثناءات لهذه القاعدة أحياناً، إذ يكون لأصحاب المآثر الاجتماعية أو السياسية أحياناً الحق في الانتماء إلى طبقة النبلاء، ولو شاءت الأقدار أن تضعهم في مستوى مادي أدنى.

٣ ـ **الكهنة**: تمكّن هؤلاء من تكوين ثروات كبيرة لهم ولعائلاتهم وأبنائهم لأنهم كانوا يتقاضون نسباً من أثمان الذبائح المقدّمة للآلهة في الهياكل. ولذلك نجح هؤلاء في دخول الطبقات الاجتماعية الرفيعة، عدا عن الموقع المعنوي الذي يحتلّه الكاهن عادة، والذي يُخوّله التحكم بكثير من شؤون الحياة الاجتماعية والسياسية.

وكان يرئس الكهنة العاملين في المعابد أرفعهم رتبة، ويطلق عليه لقب رئيس الكهنة أو «رب». وأحياناً كانت هناك كاهنات، ترئسهن الملكة. ويعاون هؤلاء الكهنة في المعابد مجموعات من حرّاس الهيكل والمنجّمين والعرّافين والسحرة الذين كان لهم شأنهم أيضاً في المجتمعات القديمة بسبب التداخل الذي كان قائماً بين الدين والسحر والتنجيم.

٤ ـ **القادة العسكريون**: لم يكن الفينيقيون شعباً مقاتلاً بطبيعته، نظراً إلى الروح التجارية التي طغت عليه من جهة، وإلى معطيات الجغرافيا التي جعلت من

فينيقيا معبراً سهلاً للغزاة في غالب الأحيان، ما خلا بعض الاستثناءات، خصوصاً في صيدا وصور، ولاحقاً في قرطاجة على الشاطىء الشمالي لأفريقيا. إذ خاضت أشرس المعارك مع الرومان وتمكن هنيبعل من تحقيق انتصارات باهرة على أعدائه. ومن الطبيعي استناداً إلى هذه المعطيات، وإلى صغر عدد سكان المدن الفينيقية أن تلجأ هذه المدن إلى استخدام المرتزقة لتأمين حمايتها، وكان هؤلاء يقومون بدور المتاريس الأولى خارج أسوار المدينة، فيما أبناء المدينة يتولون الدفاع عنها داخل الأسوار بقيادة وطنية تجنباً للوقوع في الخيانة. ومن الطبيعي أن يكون لقادة الجيش مركز اجتماعي مرموق.

وقد كان شائعاً في المدن الفينيقية أن يكون الملك هو نفسه القائد الأعلى للجيش، أي للحامية البرية العاملة داخل الأسوار وخارجها، وكذلك للأسطول البحري المرابط قبالة الشواطىء، علماً أن الأسطول الفينيقي نجح في الدرجة الأولى على الصعيد التجاري وليس على صعيد القتال، على غرار الأساطيل العظمى في ذلك العهد. إلاّ أن هذه الصورة لم تكن هي ذاتها في قرطاجة، حيث كان موقع القائد العسكري منفصلاً عن موقع الملك، فبلغ القادة هناك درجات عالية من التأثير في مجريات المملكة وسياستها، وأبرز هؤلاء هنيبعل بن برقة.

ثانياً: طبقة العامة وتتألف من أرباب الأعمال والعمال والفلاحين.

١ ـ **أرباب الأعمال**، وهم غالباً من التجار وأصحاب المهارات الصناعية التي كانت رائجة في فينيقيا خلال ذلك العهد، كصناعة السفن، إضافة إلى الأطباء الذين كان يقترب دورهم بأهميته الاجتماعية أحياناً من دور الكهنة، لأن في أيديهم أمور الموت والحياة عادة. ومن البديهي أن يكون هناك تنسيق تارةً وتنافس طوراً بين الأطباء والكهنة والعرافين والمنجمّين والسحرة.

وعلى رغم انتماء هذه الطبقة إلى العامة، فإن أبناءها كانوا ينجحون أحياناً في الانتقال إلى فئة النبلاء إذا ما قُدّر لهم بناء ثروة ترفعهم إلى مستوى مادي يسمح لهم بذلك.

٢ ـ **العمال**: درجت العادة في فينيقيا أن يكون للعمال مساكن متلاصقة في

أحياء خاصة بهم داخل المدن. وهم غالباً العاملون في الصناعات الحرفية التي اشتهرت بها فينيقيا كصباغ الأرجوان ومعالجة الخزف والزجاج. وكانت الحرف والمهارات تنقل بالوراثة من الأب إلى الابن على مدى أجيال. ويمكن القول إن طبقة العمال الفينيقيين لم تكن طبقة هامشية ولم تكن منبوذة اجتماعياً، بل على العكس من ذلك، كان المنتمون إليها يلقون الاحترام من جانب طبقة الأشراف، لأنهم يمتلكون مهارة تتطلب جهداً ذهنياً مميّزاً وقدرة على الإبداع الفني جديرة بالتقدير.

٣ ـ **الفلاحون**: لم تكن في فينيقيا سهول شاسعة نظراً إلى قرب الجبال من البحر، لكن هناك سهولاً ساحلية تكفي لسدّ حاجات المدن من المؤن، إضافة إلى كروم العنب الضرورية لصناعة الخمر وبساتين الزيتون التي يستلزمها تأمين المورد من الزيت، وكلا الخمر والزيت حاجة ماسة حتى في ممارسة الشعائر الدينية.

وعلى غرار الأمم القديمة الأخرى، اعتمدت فينيقيا تقسيماً ثنائياً لفئات القيمين والعاملين في الحقل الزراعي: ملكية الأرض والإنتاج التي تكون عادة لطبقة النبلاء، والعمل في الأرض الذي تتولاّه طبقة الفلاحين. ويذهب بعض المراجع إلى إدراج العبيد كفئة في فينيقيا لم يكونوا عبيداً بالمعنى الذي كان شائعاً بين سائر الأمم القديمة في تلك العهود، إذ امتلكوا الحق في التملك وتأسيس عائلة، ولطالما كان يجري تحريرهم إذا ما أدّوا خدمات بارزة. وثمّة مصادر أشارت إلى أن زواج الجواري من رجال أحرار كان ممكناً إذا ما تمّ إعتاقهنّ. ولهذا كان يشعر العبيد في فينيقيا أنهم جزء له دوره في الحياة الاجتماعية، وهذا ما سمح بتأسيس حياة صلبة داخل المجتمع الفينيقي، بعيداً نسبياً عن القلاقل وحالات التمرد.

الفصل الثامن

«المدن ـ الدول»

أرواد

أرواد هي من أشهر المدن الفينيقية التي ازدهرت منذ أول أيام الكنعانيين في منطقتنا.

وأرواد جزيرة مقابل ساحل مدينة طرطوس السورية، تبعد عن البر حوالي الميلين ونصف الميل، ولها ميناء حصين.

وتنوعت الروايات حول تأسيس هذه المدينة البحرية. ويعيد بعض المؤرخين تأسيس أرواد إلى زمان قديم جداً، لا يتأخر كثيراً عن زمان تأسيس مدينتي صور وصيدون. ويقول هؤلاء أن الأروادي بن حام بن نوح الوارد ذكره في كتاب التوراة هو مؤسس مدينة أرواد التي دُعيت باسمه. ويقول آخرون أن مؤسسها هو على الأقل أحد أولاد أو أحفاد الأرواديّ.

ونالت هذه الجزيرة حظاً كبيراً في الازدهار والقوة، حتّى عُدَّت من بين المدن الفينيقية الرئيسية، وماثلت شقيقاتها مثل جبيل وصور وصيدون، وازدهرت تجارتها البحرية أيما ازدهار، لكنّها لم تصل إلى ما وصلت إليه جبيل وصور في الإبحار.

أما النظام السياسي في مدينة أرواد فقد كان نظاماً ملكياً ـ جمهورياً كنظام باقي المدن الفينيقية. فقد كان لديها مجلس للشيوخ أو دار للشورى، تقوم بإدارة المجالس التي تمثل المدينة. أما الملك في أرواد فكان ملكاً وطنياً غير مستبد، يخضع أيضاً لسلطة مجلس الشيوخ.

وظلّت أرواد مدينة مزدهرة ومهمة في الحقل السياسي والاقتصادي. ولكنّها تعرّضت لغزوات شعوب مختلفة تماماً كما حصل في المدن الفينيقية الأخرى، وقد دمرّها المصريون ثم خضعت للفرس وللإسكندر سنة ٣٣٣ق.م. ثم للرومان

والعرب. وكان أهل أرواد يقدمون في كل هذه الغزوات الجزية الثمينة.

عرقا

عرقا بلدة كنعانية قديمة تقوم على تلة صغيرة فوق مدينة طرابلس في جبال عكّار. وهي لا تعلو كثيراً عن سطح البحر. وتدل آثار المدينة المكتشفة على قدمها وتاريخها العريق.

ويحيط بالمدينة سور حجري ككل الأسوار التي كانت تُبنى لحماية المدن من الغزاة.

وتقول بعض الروايات التاريخية أن باني هذه المدينة هو العرقي بن كنعان.

البترون

البترون هي أيضاً مدينة فينيقية ساحلية جنوب طرابلس، وإن لم تلعب دوراً مهماً ولم يذكرها المؤرخون كثيراً، إذ لم يبق من آثارها الكثير بسبب توالي الزلازل التي خرَّبتها.

ويعيد بعض المؤرخين تاريخ إنشاء البترون إلى ١٠٠٠ سنة ق.م. ويعتقد أن ملك صور إيتو بعل هو الذي بناها، وقد عُرفت هذه المدينة باسم بوتريس، حسب التسمية الإغريقية.

طرابلس

نشأت هذه المدينة نتيجة لقيام مجلس ثلاثي ضمّ ممثلين عن صور وصيدا وأرواد. فعندما سلكت المدن الفينيقية طريق التقدم والازدهار، واتخذت من تحالفها الوطني هدفاً ضرورياً للحفاظ على الأرض في وجه الغزاة، صمّمت على بناء مجلس خاص يتمّ فيه التشاور حول الشؤون العظيمة المشتركة. وهكذا ولدت طرابلس، تريبوليس، أي المدن الثلاث. وتشير الدلائل التاريخية المتوافرة إلى أن المجلس المذكور لم ينشأ في مدينة قائمة، وهذا يعني أن طرابلس لم تكن موجودة قبل المجلس، كما أن أيّاً من المدن الثلاث لم تكن ترضى بإنشاء المجلس في

واحدة من المدينتين الأخريين لئلا تكون لهذه المدينة ميزة على الأخرى. إلاّ أن التاريخ الذي ولدت فيه طرابلس لم يتحدَّد بدقة.

ومن غير الواضح ما إذا انضم ممثلون لمدن فينيقية أخرى، في أزمنة لاحقة إلى مجلس طرابلس. لكن بعض الوقائع التاريخية يشير إلى أن العديد من هذه المدن ارتضى في بعض المراحل أن يسترشد بمشورة المجلس الثلاثي وقراراته.

وإذ يرجّح بعض المصادر أن يكون المجلس مؤلّفاً من ثلاثمئة رجل، يمثل كل مئة منهم مدينته، فإن هؤلاء الثلاثمئة يكونون البناة الفعليّين لمدينة طرابلس، إذ كان كل رجل يصطحب معه أفراد عائلته للعيش معه. وأدّى تكاثر هؤلاء إلى بناء المدينة ذات الأحياء الثلاثة، التي كان لكلّ منها قوانينه الخاصة. ويعتقد أن الحي الأول كان في محيط ميناء طرابلس، والثاني في السلفتانية حيث مدافن الروم الأورثوذكس، والثالث في البحصاص غرب المدينة. وتمّ اكتشاف آثار لقناة جرّ للمياه من الضنية عبر مجدليا وصولاً إلى الحيّ الثاني.

ومن أقدم الأدلّة على تاريخ طرابلس ومجلس الثلاثي، ما ورد في أواسط القرن الرابع قبل الميلاد، عن اجتماع عقده المجلس لدرس السبل الآيلة إلى مواجهة الفرس والبحث عن طرق لتحقيق الاستقلال. ويعتقد مؤرخون أن ورود أخبار هذا الاجتماع في بعض الوثائق التاريخية ينفي بعض المقولات التي شاعت في بعض المراحل، ومفادها أن الاسكندر المقدوني هو الذي أمر ببناء طرابلس، وتالياً أن هذه المدينة لم تولد في العصر الإغريقي.

وقد ازدهرت طرابلس خلال عهد مجلس الشورى، إلاّ أن المجلس زال خلال الاحتلال اليوناني، وتحديداً بعد وفاة الاسكندر، ممّا أدى إلى تراجع أهمية المدينة. وخلال تولّي السلوقيين للسلطة، جرت معارك عنيفة بين انتيغونس وسولوقس، وعمد الأول إلى بناء السفن الحربية لهذه الغاية، وكان لطرابلس دور في هذه المهمة، كما كان يصار إلى نقل أخشاب الأرز من الجبال اللبنانية عبر مينائها.

وإذ انتصر سولوقس، استبدّ السلوقيون في فينيقيا. وجاء في أخبار المكابيين

أن ديمتريوس بن سولوقوس باتر، الملك السلوقي العاشر، استخدم السفن التابعة لميناء طرابلس للوصول إل سوريا حيث كانت تحدث قلاقل، بعدما رفضت ندوة روما السماح له بالعودة وتولّي العرش. وهناك معاملات عديدة لأنطونيوس مع كليوباترا، ثم أوغسطوس ونيرون وتريانوس تتضمّن اسم طرابلس.

وفي العهد المسيحي مرّ بطرس الرسول بطرابلس في طريقه من صور إلى أنطاكيا، حيث أقام أسقفاً واثني عشر كاهناً، وفي وقت لاحق كان للمسيحية شهداء في المدينة، قضوا دفاعاً عن إيمانهم في مواجهة الوثنيّة.

بعلبك

على رغم شهرة بعلبك الواقعة في شمال سهل البقاع كمدينة رومانية مهمة إلاّ أن دراسات حديثة أظهرت أن لهذه المدينة جذوراً فينيقية. ويبدو أنها كانت مدينة دينية مهمة، ويعتقد أن فيها آثار هيكل فينيقي. وتُظهر أساساته الفخمة أن الفينيقيين بنوا هذا الهيكل ربما بمساعدة الآراميين، السكان الأولين لهذه المنطقة. ثم بنى الرومان أعظم هيكل روماني على أرض لبنان، هو هيكل بعلبك، التي تعتبر آثارها من أهم الآثارات التي تركها الرومان.

اسم بعلبك «هليوبوليس» أو مدينة الشمس. هو اسم يعود في جذوره إلى أصول سامية فينيقية، أطلقه السلوقيون على هذه المدينة التي كانت تكرّس عبادة البعل السامي الذي يقرن بالشمس، ويرجّح أن يكون أصل الاسم السامي القديم «بعل بقاع» بين سلسلتين جبال لبنان الغربية والشرقيّة. وقد استعمل الرومان هذا الاسم، ثم العرب مع بعض التحريف.

ولم تتأثر هذه المدينة كثيراً بسبب بعدها عن الساحل بالثقافات الرومانية ثم الإغريقية كما تأثرت بيروت مثلاً، إنما ظلّت محافظة على أصولها السامية.

واشتهرت بعلبك في تلك الأيام بفنون الموسيقى والشعر، وكان يعتقد أن هذا الفن أغدق على أهل المدينة من آلهة الفنون الجميلة، واشتهرت نساء بعلبك بجمالهن الأخاذ بنعمة الإلهة السورية أترغاتس، التي يقال إنها كانت تحبّ أن

تطوف فوق الجبال المحيطة بمدينة الشمس.

ولأن هذه المدينة كانت منذ القديم مدينة دينية، فإنه بُني فيها منذ أيام الفينقيين معبد ضخم مكّرس للإله الآرامي هدد، ويعتقد أن الهيكل الروماني الضخم بُني على أنقاض هذا الهيكل الذي لم يبقَ له أثر. وكان الإله هدد هو إله البرق والرعد، لذا فإنه كان شفيع المزارعين، فإنه إذا أبرق وأرعد سقى الزرع، وإذا فاضت المياه هلك الزرع والضرع. وقد رُبطت عبادته بالطقس والشمس، لذا صوِّر وعلى رأسه تاج وهالة كالشمس. وتحوّل هذا الإله الآرامي إلى إله روماني، هو المشتري Jupiter.

جبيل

كانت جبيل من أهمّ المدن الفينيقية، وهي من أقدم المدن المنظَّمة في العالم. ورد ذكرها في التوراة مرّات عدّة، وكانت تدعى «جبلة». وذكرها النبي حزقيال (٢٧ : ٩) وسمّى يشوع شعبها «الجبليين» (يشوع ١٣ : ٥)، أما المصريون فسموا جبيل «كنبة» وسمّاها الإغريق «بيبلوس»، وهذا الاسم تحريف لكلمة Papyrus أي أوراق البردي ولكلمة Bible، أي الإنجيل.

ويعتقد أن حدود جبيل الفينيقية كانت أوسع ممّا هي عليه الآن، فقد ذُكر في بعض الكتب أن حدودها الجنوبية كانت عند نهر إبراهيم، وفي كتب أخرى أنها كانت عند حدود طبرجا أو صربا، وحتّى عند نهر الكلب.

واشتهر أهل جبيل كثيراً بتجارتهم البحريّة، وكانوا فيها من بين الأوائل، وكان لهم دور كبير في تسويق تجارة خشب الأرز، الذي كانت تمتد غاباته في جبالهم. ولمّا شرع سليمان ببناء هيكل الرب، وهو كان صديقاً لملك صور حيرام، طلب منه أن يبعث إليه بالخشب، وكان للجبيليّين اليدُ الطولى في تأمين خشب الأرز لهيكل سليمان.

بيروت

تشير الدراسات والحفريات الجارية في بيروت منذ بداية التسعينات إلى أن

هذه المدينة شهدت مجداً فينيقياً غابراً سبق المجد الذي اكتسبته لاحقاً في العهد الروماني، ولا سيّما مع مدرسة الحقوق. ويتمّ الكشف يومياً عن وجه بيروت الفينيقي من خلال عمليات التنقيب. ولعل من أبرز المكتشفات ملامح أسوار المدينة وحدود الميناء وبعض المظاهر العمرانية. ويقول بعض البحاثة إن موقع بيروت الجغرافي مميّز لجهة توسّطها الخط الساحلي الممتدّ من أرواد إلى صور، وقربها المناسب من دمشق والخط الداخلي المؤدّي إلى سهل البقاع. لكن ميناءها لم يكن ملائماً للملاحة كشقيقاتها الفينيقيات، لأنه عرضة للأنواء الآتية من الجهة الغربية. ولذلك كانت السفن تلتجىء إلى الخليج المسمّى اليوم خليج مار جرجس إذا ما تعرضت للرياح الغربية. أمّا إذا عنفت هذه الرياح، فيكون هذا الخليج أيضاً غير آمن للسفن.

إلاّ أن هذه المدينة التي تفتقد الميناء الآمنة، تمكنت من إثبات دورها ضمن العائلة الفينيقية. ومن الأمثلة على ذلك أن أوغاريت كانت في مرحلة ما تابعة لمدينة بيروت كما تشير رسالة كتبها ملك بيروت إلى ابنه حاكم أوغاريت، وفق ما أورده المؤرخ ڤيرولّو في كتابه «سوريا» الجزء الحادي والعشرون.

وثمة اختلافات بين المؤرخين حول مصدر اسم بيروت. فقال بعضهم إن الاسم الأصلي هو بيروت، أي الزهرة، فيما البعض الآخر نسبه إلى ابنة الزهرة وأدونيس بيروبا. لكن المرجح هو أن الاسم يعود إلى بيروت أو باروث، ومعناه بالفينيقية «آبار» لكثرة وجودها في هذه المدينة. إلاّ أن المياه كانت تصل أيضاً إلى بيروت عبر قناطر زبيدة الواقعة بين المتنين الشمالي والجنوبي، وما زالت آثارها قائمة حتى اليوم.

صيدا

صيدا مدينة فينيقية عريقة قامت على أنقاض مدينة صيدون الواقعة في جنوب لبنان. وهي تقع على أرض صخرية بحرية.

وقد اشتُهرت هذه المدينة شهرة كبيرة في أيام الفينيقيين، وامتلكت البحر،

إلى جانب جبيل وصور. وكان لها مرفأ كبير، أوسع ممّا هو عليه الآن، وكان يسع خمسين سفينة، إلاّ أن الأمير فخر الدين أمر بتضييقه لمنع سفن الدولة العثمانية من دخول المرفأ.

تعتبر صيدون من أعرق المدن الفينيقية، وقد وردت في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، وورد أن المسيح زار هذه المدينة بمروره على الشاطىء الفينيقي حيث كانت له معجزة شفاء المرأة الكنعانية. وقال المؤرخ يوسيفوس في تاريخه إن من أبناء كنعان صيدونيوس الذي بنى مدينة سماها باسمه. وقد وصفها يشوع بن نون بالمدينة العظيمة. أمّا هوميروس فيتوقف في الألياذة عند مهارة الصيدونيين في صناعاتهم وبسالة جنودهم وقساوتهم، ويشير إلى أن بحّارتهم مارسوا التعديات ضد الطرواديين خلال حرب طروادة. وثمّة كتابات تاريخية عديدة تؤكد أن الفينيقيين كانوا يسمّون أحياناً صيدونيين بسبب شهرة أهل صيدون ودورهم الكبير السابق لدور أهل صور. وثمة دلائل إلى أن صور كانت في بداية عهدها خاضعة للسلطة الصيدونية قبل أن تزدهر وتأخذ في بناء مجدها الخاص وتبلغ الذروة مع قرطاجة وأبطالها التاريخيين.

وكانت صيدون تشكّل مع شقيقتيها صور وأرواد واحدة من المدن الثلاث المكوّنة للمجلس المؤلّف لندوة طرابلس. وكان لها، على غرار شقيقاتها الفينيقيات إلٰه بعل هو أَشمون، إلٰه الشفاء. وقد وجدت خرائب هيكله في العام ١٩٠٠ عند المدخل الشمالي لمدينة صيدا الحالية.

وفي متحف اللوفر في باريس ناووس فينيقي حفر عليه اثنان وعشرون سطراً باللغة الفينيقية، وممّا جاء فيها: «قد حُملتُ، قد ابتُلعتُ في مدفني. انتهت المشقات في رواقي. أنا أشمونعيد ملك الصيدونيين ابن الملك تبنيث ملك الصيدونيين ابن ابن الملك أشمونعيد ملك الصيدونيين ها قد بنينا بيت أمي رحباً غنياً. النور على الأكمة. وبنينا مقامي ليتعالى اسم النور. وبنينا الهياكل لآلهة الصيدونيين في صيدا البر والبحر، هيكل بعل صيدون وهيكل عشتروت ليتعالى اسم بعل».

ويشير تاريخ صيدون إلى أن أهلها تمكنوا من تأسيس مملكة آمنة وسط القلاقل التي عاشتها معظم الممالك المجاورة، إلى جانب المهارة الحرفية وركوب البحر، إذ تمكّن الصيدونيون من بناء مستعمرات عدّة لهم. وتدلّ الكتابات التي أوردتها نقود المملكة أن صيدا هي أُمّ مدينة هبّو على الساحل الشمالي لأفريقيا ومدينة كيتيوم في جزيرة قبرص. لكن السيادة البحرية الصيدونية تراجعت في ما بعد أمام بروز المجد الذي بنته مدينة صور، ابنة صيدون، على ما أورد أشعيا النبي في أسفار العهد القديم.

صور

مدينة صور الساحلية الجنوبية من أقدم المدن الفينيقية، ومن أهمها، نظراً إلى جسامة الأحداث التي جرت على أرضها وانطلقت منها، وعلى رأسها نشر الحرف الأبجدي بواسطة قدموس ابن صور. وبناؤها أهم مستعمرة فينيقيّة في الخارج: قرطاجة.

تنقسم صور إلى مدينتين: صور البريّة وصور البحريَّة، وهذا ما شكّل لها عبر العصور حصناً منيعاً وقلعة متقدّمة في وجه الغزاة الآتين من البحر والبرّ على السواء.

صور، سيدة البحار، كانت مدينة جميلة للغاية، مزدهرة، تعانق البحر والجبال، وروعة صور هذه دوِّنت في ملحمة الشاعر نونوس «الديونيزية»، وفيها وصف الإله باخوس الذي زار صور المدينة بأجمل الأوصاف، قال عنها: «أيتها العذارء لن أقطن السماء بعد الآن لحبي لكِ، فمثواك أجمل من الأولمب». وقد تجوّل باخوس ابن الإله زفس في أرض صور، وأُعجب بروعتها وقوة تحصينها وازدهار تجارتها وجمال أقمشتها وباللون الأرجواني الذي اكتُشف على أرضها، ومنها انتشر في أنحاء العالم.

ووصف باخوس المدينة ذات الينابيع العديدة والأشجار الوارفة، وتعجّب كيف أن حوريات البحر فيها يناجين جنيات البرّ.

وتقول الأسطورة التي أوردها الشاعر نونوّس في ملحمته إن الإله هرقل المرصّع بالنجوم هو الذي أعطى الحياة لأهل صور الذين سكنوا فيها منذ الأزل، والذين عمرهم كعمر الكون. إلاّ أنهم كانوا في سبات عميق. فقال لهم هرقل بقلبه المفعم بالحب أن انهضوا من سباتكم وقوموا من الطين إلى الحياة. أمرهم بأن يقطعوا سنديانات الجبل ويصنعوا منها مراكب، وأراهم دلفيناً في البحر ليصنعوا المركب شبيهاً به. فصنعوا المراكب وثقّلوا قعرها بأربعة حجارة متوازنة، واتجهوا إلى البقعة التي عليها صور الآن.

ولمّا وصلوا رأوا صخرتين واحدة في البرّ وأخرى في البحر، وشجرة زيتون عليها عقاب، فقال لهم هرقل أن يقتلوا الطائر ويهرقوا دماءه فتلتحم الصخرتان التحاماً أبديّاً. وهكذا حصل ونشأت صور المدينة البحرية المحصّنة والتي ذاع صيتها وجمالها في الكون.

وبعدما فرغ الإله هرقل من ذلك، قام بإطلاق سهامه على ثلاث عذارى باعثاً في قلوبهن الرغبة والحبّ. فتزاوجت حوريات الماء بأهل الأرض، وتوالد أهالي صور المتحدّرون من الآلهة. وقد تحولت الحوريات الثلاث إلى ثلاثة ينابيع مياه تروي المدينة.

أهمية صور: تعتبر صور من أهم المدن الفينيقيّة وربّما من أقدمها، ومن أحفلها بالأحداث التاريخية والأساطير. ويقول الصوريون إن مدينتهم قديمة جداً، وإنها أم المدن الفينيقيّة. ويرد في سفر أشعيا النبي عن صور «المفتخرة التي منذ الأيام القديمة قدمها». وتتزاحم صور وصيدون في الأهمية والقدم.

وفيما يعتبر كتاب التوراة أن مدينة صيدون هي أهمّ المدن الفينيقية وأقدمها، يعتبر الكتّاب الإغريق أن صور هي الأهمّ ويدعونها «متروبوليس» أو حاضرة وعاصمة. ويقول بعض المؤرخين أن مدينة صيدون هي التي أسّست مدينة صور، وهذا القول ينفيه آخرون، ويبرهنون على ذلك باختلاف طقوس العبادة والآلهة بين المدينتين...

وقد اختارت الآلهة مدينة صور مدينة مميّزة لسكناها. ففيها وُلدت عشتروت،

ومات ملكارت، واختبأت إيزيس عندما هربت من التنين. لذا دُعيت صور بالمدينة المقدّسة.

وصور مهمّة لأنها موطن أوروبا وقدموس الذي صدّر الحرف إلى العالم، وعلى شطآنها اكتُشفت صدفة الموركس التي تعطي الصباغ الأرجواني.

وتدور حول مدينة صور أساطير إلٰهية عديدة حول إنشائها وأهميتها وتشييد المعابد فيها، وأهمها هيكل بعل السماء (بعل شميم أو زفس الأولمبي) وحرم الإلٰه أجنّور ومعبدا عشتروت وملكارت، ومعبد هرقل تاسوس.

وذكرت صور مرّات عدّة بالمديح في أسفار العهد القديم. فقال عنها أشعيا النبي «تجّار صيدون وعابرو الأمم يملأونها. . . ذات مجد عظيم في قلب البحار، تتوج الملوك، تجّارها أمراء ومكتسبوها كرام الأرض».

أما النبي حزقيال فيصف صور أيضاً بأبهى الصفات، ويتحدث عن ازدهار تجارتها وغناها وثرواتها، ويمدح ملكها قائلاً عنه: «هكذا قال السيد الرب، أنت ممتلىء حكمة وكامل الجمال، كنت في عدن جنة الله، وكان كل حجر كريم كساء لك، من الياقوت الأحمر والياقوت الأصفر والماس والزبرجد والجزع واليشب واللازورد والبهرمان والزمرد. . . كامل أنت في طرقك من يوم ولدت».

وبسبب الأهمية التي تمتّعت بها صور في أيام الفينيقيين، قام الإغريق بإطلاق اسمها على المنطقة التي عرفت بسيريا، اشتقاقاً من صور.

إسم صور: اسم صور يعني في كل اللهجات السامية الصوّان أو الحجر الحاد، والكلمة تعني في الفينيقية الصخرة. ويدلّ الاسم على أن المدينة تقوم على صخرة صلدة.

وورد اسم صور مرّات عدّة في نقوش وكتابات في أشكال مختلفة، فاسمها ورد في كتابات الكرنك المصرية، وأُشير إليها في بعض الكتابات المصرية بأنها مدينة في وسط البحر وأنها غنية بالأسماك أكثر من حبّات الرمل.

كما ورد اسم صور في رسائل تل العمارنة وفي وثائق أشورية وكلدانية وفي

نصوص أوغاريت، وفي التوراة.

أما اليونان فقد أطلقوا على هذه المدينة اسم Tyr. وهو الاسم الذي ما زالت تُعرف به المدينة في عصرنا الحالي حسب التسمية الأجنبية.

صور المدينة الحاضرة: صور مدينة بمدينتين، واحدة بحريّة والثانية بريّة وقد اتّصلتا ببعضهما بفضل الجسر الذي بناه الاسكندر المقدوني عندما دخل صور. وقد تأسّست صور البرية قبل صور البحرية، ولكن شهرة الجزء البحري كانت أوسع، وهذا الجزء هو الذي عُرف في البداية باسم صور، وهي التي تركّز فيها الثقل الاجتماعي والسياسي والعسكري والاقتصادي، وهي المركز الديني والتجاري أيضاً.

ويعتقد أن حدود صور كانت تمتدّ في الألف الثاني قبل الميلاد إلى منطقة الرشيدية. إلاّ أن نفوذها امتدّ أبعد من ذلك بكثير ووصل إلى مدينة عكّا الفلسطينية حوالي ٣٤٠ ق.م. التي كانت خاضعة لصور سياسياً واقتصادياً.

وقام الملك حيرام الأول، وهو أشهر ملوك صور، بتوسيع حدود المدينة في القرن العاشر قبل الميلاد، جالباً الكثير من الصخور إلى شرق الجزيرة الرئيسية وساداً القناة المائية التي كانت تفصل بين الجزيرتين.

وكثُر سكان صور، حتى تجاوزوا العشرين أو الخمسة والعشرين ألفاً، وكان عدد السكان يزداد مع لجوء العديد من الناس إليها في أيام المحن والحروب. وكان فيها أبنية تتألّف من عدّة طبقات، وهذا أمر لافت للنظر في تلك العصور السالفة.

الموانيء والتحصينات: كان لمدينة صور أيام الفينيقيين ميناءان كبيران، أحدهما دعي ميناء صيدون لوقوعه في مواجهة مدينة صيدون، والثاني في الجنوب، وعُرف بالميناء المصري.

وظلّ ميناء صيدون يستخدم كميناء رئيسي للمدينة حتى العصور المتوسطة. واشتهر هذا الميناء بحصانته وقوته، فقد كان مدخله صغيراً يصعب دخوله، وتكفي

لحمايته بضع سفن صورية. وكان ملجأ للسفن الهاربة من أنواء البحر في الشتاء.

أما المرفأ المصري في الجنوب، فقد غطته الرمال وطُمر في قاع البحر بسبب زلزال كبير ضرب المدينة. وكان يُعتقد أن هذا المرفأ كان مكوّناً طبيعياً من الصخور. إلاّ أن أبحاثاً أُجريت في العام ١٩٣٤ كشفت عن رصيف تحت سطح البحر طوله ٧٥٠ متراً وعرضه ثمانية أمتار وعن تحصينات ودفاعات، ممّا أظهر أن هذا الميناء الحصين كان من عمل الصوريين أنفسهم.

وإضافة إلى التحصينات اللاحقة بالمرافىء، فإن الصوريين قاموا ببناء تحصينات منيعة لمواجهة الغزوات المصرية والأشورية. فقد أُحيطت المدينة بأسوار ضخمة بنيت في البحر من دون رصيف يسمح للغزاة بتثبيت السلالم عليه. وقد بلغت هذه التحصينات لجهة الشرق ارتفاعات شاهقة، قاربت المئة والخمسين قدماً، فيما كانت هذه التحصينات أقلّ مناعة لجهة الجنوب، ومن هذه الجهة ركّز الاسكندر المقدوني هجماته وخرق المدينة الحصينة.

المياه والينابيع: كانت برك رأس العين وما زالت الينبوع الرئيسي الذي يغذّي صور بالمياه. ولكن لم يكن في صور البحرية ينابيع مياه عذبة، وكانت مياه رأس العين حتّى القرن الثامن قبل الميلاد تُنقل إلى جزيرة صور بواسطة القوارب. وبعدما فكّ الملك سنحاريب حصاره عن صور، بوشر بإنشاء قنوات توصل مياه رأس العين تحت الأرض إلى الجزيرة. وما تزال بقايا هذه القنوات موجودة في المنطقة.

ومعلوم أن السيّد المسيح زار مدينتي صيدا وصور. ويروي التراث الصوري أن المسيح جلس على حجر رخامي كبير إلى جانب الينبوع ينتظر رجوع بطرس ويوحنا، وقد شرب من ماء النبع.

الملك الصوري أحيرام الأول: تولّى أحيرام بن أبي بعل عرش صور في العام ٩٨٠ ق.م. وكان عمره عشرين عاماً. وكان هذا الملك الشاب ذا طموح وحنكة، ووصلت صور في عهده إلى قمّة ازدهارها وسيادتها.

ووزّع اهتمامه إلى ناحيتين: تحسين الوضع الداخلي لصور وبسط سيطرة

المدينة على الجوار. فقام بأوّل عمل وهو توسيع مدينة صور بوصل الجزيرتين وجلب كميّات كبيرة من الحجارة. بعد ذلك أولى اهتمامه إلى دور العبادة، فرمّم القديم منها مستعيناً بذلك بخشب الأرز. فأعاد بناء معبدي ملكارت وعشتروت وبنى عموداً من الذهب في هيكل بعل السماء.

وعُرف حيرام الأول بصداقته القوية مع الملكين اليهوديين داود وابنه سليمان. وكان تبادل الهدايا عادة قائمة بين الملكين الصوري واليهودي. ولم يبخل حيرام الأول بخشب الأرز القوي على الملك داود ثم على الملك سليمان الذي بنى منه هيكل سليمان الشهير.

كما بعث حيرام إلى الملك سليمان عمّالاً ونجّارين ساعدوا في بناء الهيكل، كما أرسل إليه سفناً وعبيداً، وقد حقّق الملك سليمان ثروة واسعة بفضل صداقته مع ملك صور، ممّا يدل إلى مقادير الثروة والذهب الذي كان يتدفّق إلى خزائن صور في تلك الأيام.

المراجع

تاريخ لبنان - الدكتور فيليب حتّي - منشورات دار الثقافة ١٩٧٨.

Science et vie - Août 1996 - No: 947.

صور حاضرة فينيقيا معن عرب - دار المشرق - بيروت.

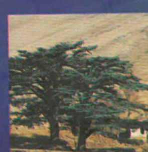
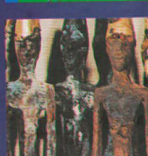
تاريخ لبنان الحضاري - يوسف السودا - دار النهار للنشر بيروت ١٩٧٩.

من تاريخ سوريا الدنيوي والديني - المطران يوسف الدبس - ١٨٩٣.

تاريخ لبنان - العلامة الأب مرتين اليسوعي

تاريخ سوريا جرجي ينّي.

المحتويات


Edito Creps
International